

الفصل الثاني

الشهادة والشهيد في شعر العصر الأموي

المبحث الأول : بواعث الشهادة

المبحث الثاني : صفات الشهيد

المبحث الثالث : المعاني المستخلصة من
شعر الشهادة والشهيد

obeikandi.com

امتدت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين امتداداً محدوداً لم يصل بها إلى حدود ثابتة إذ ما تزال هناك منازعات واتصالات حربية على الحدود في مختلف الجبهات، وما تزال الأرض التي امتد لها الإسلام معرضة لحملة أعداء الإسلام من وراء الحدود فكان لابد من معارك أخرى يخوضها قادة الدولة الأموية في أكثر الميادين التي انتهى عندها الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين فتسللت هذه المعارك وسارت خطوة خطوة^(١) (فاندفعوا في أقطار الأرض فاتحين محررين ، لا حياً في الغزو ، ولا تهاقتا على غنيمة ، وإنما جهاداً في سبيل الله وإعلاء لرسالته في الأرض)^(٢) ، فواكبوا (تسجيل الملاحم وخاضوا غمار الانتصارات ، وكتبوا لصمودهم القتالي أروع صفحات الانتصار فكانوا رمزاً لكل بطولة ، وعنواناً لكل مجد)^(٣) . فهذا العصر على اتساع مدة حكمه وكثرة حروبه التي خاضها ضد أعداء الإسلام لم يصل إليها فيما يخص شعر الشهادة والشهيد إلا القليل ، وليس سبب هذه القلة راجعاً إلى قلة أبطال هذا العصر الذين جادوا بأرواحهم في المعارك الحربية الكثيرة ولا عن خلو صفوف جيوش هذا العصر من الشخصيات القوية ، التي أدت خدمات جليلة في الحفاظ على دولة الإسلام من كيـ الأعداء، وخلفت وراءها صفحات من الكفاح المخلص ، تسجل مآثرهم وبطولاتهم وتضحياتهم^(٤) وإنما سبب هذه القلة يمكن أن نعزوه بعد الدراسة والبحث إلى الأسباب الآتية:

١. يرجع السبب الأول إلى أصحاب كتب التاريخ أنفسهم فمؤلفو هذه المصادر قد اقتصرُوا على القليل من الأبيات الشعرية ولا سيما مطالعها وذلك عندما يستشيدون بها على الحوادث التي تمر بهم فعلى سبيل التيسيل لا الحصر نجد صاحب الفتوح ابن أعثم الكوفي في أحد المواضع وهو يتحدث فيها عن إقدام الجراح بن عبد الله الحكمي^(٥) في إحدى المعارك التي خاضها ضد أعداء الإسلام ثم استشهاده ، فقال

(١) يُنظر: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية: ١١١/٢-١١٢ د . احمد شلي .

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي: ٢١٣ .

(٣) شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٤٣ .

(٤) يُنظر: انماعات الشعر في العصر الأموي: ١٥٦ د . صلاح الدين الهادي .

(٥) سبأني نحوه لاحقاً . يُنظر: هذا البحث : ١٥٩ .

صاحب الفتوح (وبكى المسلمون في كل بلد حزنا منهم على الجراح وأصحابه فأنشأ بعض أهل الشام يقول في ذلك أبياتا مطلعها)^(١):

نَفْسِي الْفِدَاءَ لِجِرَاحٍ وَقَدْ نَحَبْتُ نَفْسَ الْجَبَانِ وَضَاقَ الْوَرْدُ وَالصَّدْرُ

فاكتفى بالطلع وحرم الدارسين من بقية الأشعار ومن دون أن يعزو هذا الشعر إلى شاعر محدد .

٢. يعود السبب الثاني إلى استشهاد كثير من الشعراء الذين رافقوا هذه الفتوحات فضاع شعرهم الذي وثقوا به تفصيلات هذه الفتوحات وما كان فيها من توضيحات كثيرة^(٢) .

٣. أما السبب الثالث فيتعلق بالعصبية القبلية التي اتصف بها قسم من شعراء هذا العصر، فقسم من هؤلاء الشعراء الذين رافقوا هذه الفتوحات والذين لم يرافقوها قد اقتصرُوا في أشعارهم على توثيق تضحية واستشهاد فرسان قبيلته ، فإذا ما سقط منهم شهيد قاموا بتخليد تضحيته واستشاده ، أما فرسان بقية القبائل الأخرى فلا علاقة لهم بهم^(٣) .

٤. والسبب الأخير نعزوه إلى طبيعة هذا العصر ، فقد اتجه فيه الشعر اتجاهات متعددة بعضها ذهب إلى مناصرة الأحزاب وتخليد وقائعها ومآثرها^(٤) ، وقسم ذهب إلى الزهد^(٥) وقسم آخر اتجه إلى المناقضات والخصومات^(٦) ، خلافا لعصر صدر الإسلام الذي توجه فيه الشعر اتجاهاً واحداً وهو خدمة الدعوة الإسلامية ، وتخليد تضحيات واستشادات أبطالها ، وهجاء أعدائها .

إنَّ الغاية من ذكر هذه الأسباب في مقدمة الفصل الخاص بهذا العصر هو جعل الباحث الكريم على علم بأسباب قلة شعر الشهادة والشهيد الخاص بهذا العصر وحتى لا يفاجأ عندما يقرأ الأشعار التي حصل عليها البحث وأحاطها بما يناسبها من تعليق ، فلو

(١) يُنظر: الفتوح: ٤١/٨ .

(٢) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٧٩ .

(٣) أُخذ هذا الرأي من معاصرة الأدب الإسلامي للدكتور سامي مكِّي العالبي بتاريخ ٢٠٠٢/٧/٥ .

(٤) يُنظر: اتجاهات الشعر في العصر الأموي إد فعل صاحب الكتاب القول في ذلك

(٥) يُنظر: الإسلام والشعر : ٨٤-٩٦ ، د . سامي مكِّي العالبي .

(٦) يُنظر: مناقض حرير و نمرودق .

كان البحث قد أُرِّخ ذكر هذه الاسباب وقرأ الباحث الكريم هذه الأشعار القليلة عندها سوف يلاحظ فرقا بينها وبين مادة عصر صدر الإسلام ويسأل عن أسباب هذه القلة التي تسبب له الأرباك ، لذلك أدرك البحث أنه من الأفضل ذكر هذه الاسباب في مقدمة هذا الفصل .

وما وجدته البحث من أشعار تخص هذا العصر لا تختلف في أصلها عن أشعار صدر الإسلام بل كان الاختلاف في الكم أو العدد فبعض العنوانات وما اندرج تحتها من أشعار قد تشابه في الاصل والعدد والقسم الاخر كما قلنا قد تشابه في الاصل دون العدد .

المبحث الأول بواعث الشهادة

لم يتغير موقف مجاهدي هذا العصر تجاه الشهادة والحرص غلبها بل احبوها وحرصوا على طلبها والفوز ، فأصبحت الشهادة عندهم عقيدة راسخة في مكان اعتقادهم بعد ان (تأكد لهم ان الآخرة خير وابقى مادام الله تعالى قد اشترى منهم انفسهم واموالهم بان لهم الجنة) (١) . أما البواعث التي حملت رجال هذا العصر على الاقدام في ركب الجهاد والفوز بالشهادة فهي تتشابه في اصلها وجذورها مع البواعث التي حملت مجاهدي صدر الإسلام وسوف يتضح ذلك اكثر عندما ندرس هذه البواعث واحداً بعد الآخر .

١. رسوخ العقيدة الإسلامية:

ان رسوخ العقيدة في مكان اعتقاد المجاهدين قد حولهم إلى منفتحين على العالم بعد ان كانوا لاثين في الجزيرة أحقابا لا يخرجون الا طلباً للخصومة وللتناحر فيما بينهم فجعلت منهم هذه العقيدة اداة تحطيم للطواغيت التي تحول دون دخول الإسلام إلى شعوبها وتحرمهم منه (٢) (فاندفعوا في حماس بالغ ينتشرون بهذا الاعتقاد والشعور خارج حدود بلادهم إلى الشرق والغرب وإلى الشمال لا يابيهون بقوة في الأرض ، واتقن الثقة كلها بنصر الله ، أملىن كل الأمل في ... الشهادة...) (٣) فإذا ما حانت ساعة اللقاء تقدم المجاهد إلى عدوه وكله شوق إلى الشهادة وباعته على هذا الاقدام ايمانه الصادق بعدالة القضية التي يحارب من اجلها (٤) (فلا شيء يشد من أزر الجندي كإيمانه بوجهة نظره ، واطمئنانه على مصيره المحمود في حالتي النصر أو الغلبة ، فما بالك به إذا كان يعتقد

(١) شعر الفتح الإسلامية: ٢٧٥ .

(٢) يُنظر: الجهاد في سبيل الله : ٥١ .

(٣) الأدب في عصر النبوة والراشدين : ٣٠٠-٣٠١ .

(٤) يُنظر: الفن الحربي في صدر الإسلام: ٣٠٦ .

انه من حزب الله الذين ينزل عليهم نصره ويؤيدهم بروح من عنده ، ... فهذه العقيدة تخلق في صاحبها روح التضحية ، وتحمله على إيتار الموت على الحياة (١) ، فأصبحوا لا يهابون الموت ولا يخشونه لان صدق عقيدتهم قد جعلت الموت عندهم اشهى من العسل.

لقد برهن رجال هذا العصر على انهم (اشد بأساً ، وأقوى عزيمة واعظم ايماناً ، وأقدر على التضحية في سبيل العقيدة ، والاستشهاد من اجلها والسخاء بدمائهم من اجل صون كرامتهم وعزتهم والحفاظ على شرفهم) (٢) ، هذا ما اكده جروة بن يزيد (٣) ، فقال (٤):

سَأَغْزُوُ التُّرْكَ فِي نَفَرٍ كَرَامٍ سِرَاعٍ حِينَ تُدْعَى لِلضَّرَابِ
يَرُونَ المَوْتَ أَفْضَلَ مِنْ حَيَاةٍ تُصَيِّرُهَا الدَّهْوَرُ إِلَى تَبَابٍ (٥)

فما معه من جنود بواسل قد ترسخ الإيمان الصادق بالله تعالى في معتقدهم ومن شروط هذا الإيمان ان يسعى المؤمن به إلى مرضاة الرب تبارك وتعالى ومرضاته تكون

(١) الفن الحربي في صدر الإسلام : ٣٠٦-٣٠٧ .

(٢) الفروسيه في أدب ق ٨١ هـ / ٨٤ .

(٣) هو: جروة بن يزيد الطائي استشهد مع سرورة بن الحر الجعفي في سمرقند في معركة غير متكافئة إذ عطف الترك والسغد نحو سرورة وأصحابه فالتقى الجيشان وتقابلوا قتالاً شديداً لم يكن لسورة واصحابه به طاقة فاستشهدوا جميعاً . ينظر: المعمرن والوصايا : ٦٧ ، لأبي حاتم السحستاني ، تحقيق عبد النعم عامر ، وتاريخ الطبري: ٢٠٩/٨ - ٢١١ ، والفتوح : ١٠٣/٨ .

(٤) المعمرن والوصايا : ٦٩ .

(٥) تباب: الهلاك والخسران . ينظر: اللسان: ٤١٥/١ (تيب) .

في قتال اعدائه والفوز بجناته ، فإن فعلوا فقد استحقوا ثناء الله تعالى فهذا جروة بن يزيد يثبت لنا ان جنوده قد تحلوا بهذا كله فقال (١):

وَفَتِيَانِ إِذَا نُدِبُوا لِحَرْبٍ	تَمَشُّوا مِشْيَةَ الْإِبِلِ الْمِيَامِ
يَرُونَ عَلَيْهِمُ اللَّهَ حَقًّا	مُقَارَعَةَ الطَّمَاظِمَةِ الطَّغَامِ
يُرِيدُونَ الْمُثُوبَةَ مِنَ اللَّهِ	بَصِيرٍ تَحْتَ قَسْطَالِ الْقَتَامِ (٢)
وَكُلُّهُمْ يُرَادِي التُّرْكَ قِدْمًا	وَيَكُوي مُنْفَسًا فِي كُلِّ عَامِ
وَيَرْجُو اللَّهَ لَا يَرْجُو سِوَاهُ	وَرَاغِي اللَّهَ يَرْجِعُ بِالسَّلَامِ

ان في جهاد جروة وجهاد أصحابه يتضح أثر العقيدة الحاسم والإيمان بالشهادة في جهادهم (٣).

إن ما تقدم ذكره من نماذج قليلة جسدت دور العقيدة باعثاً قويا لأصحابها على الإقدام والاستشهاد كما ان هذه القلة من الأمثلة لا تعني ضعف العقيدة باعثاً على الشهادة بل ان السبب يعود كما تقدم ذكره إلى قلة أشعار الشهادة ولا ننسى ان نشير إلى ان هذا الباعث قد تماهى مع البواعث الأخرى على ما سيأتي .

(١) المعمرن والوصايا : ٦٩ .

(٢) قسطن: غبار . بنظر: اللسان: ٣٦٢٨/٥ (قسطل) .

(٣) بنظر: شعراء إسلاميون : ٢٠-٢١ .

٢. تحريض قادة جيوش المسلمين:

ذكر البحث سابقاً وتحديداً في ختام دور هذا الباعث الذي حمل رجال صدر الإسلام على الشهادة أن هذا الباعث سوف يبقى عاملاً حاسماً لصالح المسلمين في معارك ضد أعدائهم ما تمسك به من جاء بعدهم من قادة^(١). ومن خلال الدراسة وجد البحث أن قادة هذا العصر قد تمسكوا بنهج سلفهم الصالح وأعطوا لهذا الباعث أهمية كبيرة في معاركهم ضد أعدائهم ، ففي سنة ثمانى وسبعين من الهجرة توغل جيش المسلمين في بلاد رتبيل بسجستان حتى صار على مقربة من مدينته فحاصره العدو بعد أن أغلق عليه الطرق والشعاب فلم يكن ثمة منفذ أمام الجيش للانسحاب فخاف عبيد الله بن أبي بكر^(٢) هلاك الجند الذين معه مما دفعه الوضع إلى مصالحة صاحب رتبيل وإعطائه ما لا مقابل أن يخلي بينه وبين الخروج لكن هذا الوضع لم يرض قائداً أحب الشهادة ورأى في هذا الانسحاب ابتعاده عنها ، إنه شريح بن هاني^(٣) الذي رفض هذا التنازل وأخذ يؤنب عبيد الله ويستقبح فعلته وقال: (والله بلغت سناً وقد هلكت لذاتي ، ما تأتي علي ساعة من ليل أو نهار فأظنني تمضي حتى أموت ، ولقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان ولئن فاتتني اليوم ما أخالني مدركياً حتى أموت ، ... وقال يا أهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإلي فاتبعه ناس من المتطوعة غير كثير وفرسان الناس وأهل الحفاظ)^(٤) ، فنحن نرى دور هذا القائد وهو يحثهم على التضحية والاستشهاد^(٥)، فقاتل ومن معه من الجنود حتى

(١) ينظر: هذا البحث : ٤٥ .

(٢) هو عبيد الله بن أبي بكره الثقفي كان اميراً جواداً ومات في سجستان . ينظر: العري في خبر من غير: ٧٩/١ ،

نورح الإسلام الحافظ الذهبي، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ٢٠٢/١ ، جمال الدين يوسف بن تعري بردي .

(٣) هو شريح بن هاني بن يزيد بن هيك أبو المندام أدرك النبي ﷺ وقتل غارياً مع عبيد الله بن بكره بسجستان سنة ثمانى

وسبعين إذا أخذ الكفار للدروب على المسلمين يومئذ فقتل عامة الجيش . ينظر: العري في خبر من غير: ٦٦/١ ،

والإصابة : ٢٢٣/٣ - ٢٢٤ .

(٤) تاريخ الطبري: ٢٨٢/٧ .

(٥) ينظر: الأدب والالتزام: ١٦٨ .

أصيبوا فجعل شريح يرتجز يومئذ بأشعار جسد فيها حرصه على أن ينال الشهادة اليوم ،
وهذه الأشعار باعثٌ قويٌّ لمن معه من الجنود على الإقدام والاستشهاد فقال (١):

أَصْبَحْتُ ذَا بَثٍّ أَقَاسِي الْكَبِيرَا قَدْ عَشْتُ بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ أَعْصُرَا
ثُمَّ أَدْرَكْتُ النَّبِيَّ الْمُنْذِرَا وَبَعْدَهُ صَدِيقَهُ وَعَمْرَا
وَيَوْمَ مَهْرَانَ وَيَوْمَ تُسْتَرَا وَالْجَمْعَ فِي صِفَتِهِمْ وَالنَّهْرَا
وَيَا جُمَيْرَاتٍ مَعَ الْمُشَقْرَا هَيْهَاتَ مَا أَطْوَلُ هَذَا عُمْرَا

فلم يزل يقاتل الأعداء ومن معه من الفرسان الذين ثبتوا على دينهم ولم يساوموا
في الغاية والهدف الذي جاؤوا من أجله حتى نالوا الشهادة جميعا ، التي طالما تمنّاها
وحرص عليها هذا القائد الشجاع (٢) .

لقد كان هذا المصير المشرف دافعا وحافزا لجيوش التحرير في سيرها نحو تدمير
قلاع الأعداء وحصونهم ، فواصلوا المهمة دون خوف من كثرة الأعداء أو قوة عدتهم
لأنهم جيش يمتلك أهم عاملين حاسمين في المعارك وهما الإيمان بالله تعالى والإخلاص له
والاستشهاد من أجل الحق الذي خرجوا إلى تحقيقه . فيذان العاملان قوة مقتدرة في كثير
من المعارك الحاسمة لذلك كان قادة المسلمين يؤكدون هذه الحقيقة عند بداية كل هجوم أو
القيام بتقدم (٣) ، ويتجلى لنا ذلك أكثر وضوحا في جيش مسلمة بن عبد الملك بن مروان
الذي سيره الأخير بقياده ابنه إلى قتال الروم وقد التحق بهذا الجيش فتية منيون هداهم الله
تعالى إلى الدين العظيم فاستشعروا لذة الإيمان ونشوة الاستشهاد فمضوا في ركب الجيش
يقاتلون الأعداء فما زالوا هكذا حتى استشهد خمسة نفر منهم (٤) ، عندها التفت بشر بسن

(١) تاريخ الطبري: ٢٨٢/٧ .

(٢) ينظر: المصدر نفسه : ٢٨٢ / ٧ - ٢٨٣ .

(٣) ينظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٥٧ .

(٤) التحق هذا الجيش الذي سيره عبد الملك بن مروان ستة تسعة وثمانين عشرة فتية وهم: سليمان بن عمرو القرشي ،
وأخوه يحيى بن عمرو ، وهارون بن الحسين التميمي ، وأخوه أحمد بن الحسين وعمد بن ورعة العددي ، وأحمد بن عمدة
البيكري ، وبشر بن مضر الأزدي ، وسعيد بن إسماعيل الطائي الأسدي ، وعمد الله بن عمرو الطائي ، وبعقوب بن عمدة
الكريم الأنصاري ، وقد استشهد هؤلاء الفتية جميعا .

ينظر: الفروع: ١٧٠/٧ - ١٨٨ .

مطر الأزدي إلى اخوته الذين بقوا معه وهم: يعقوب بن عبد الكريم الانصاري واحمد بن محمد اليشكري ومحمد بن زرعة العبدي فقال لهم: يا اخوتي إِنَّهُ قد استشهد منا خمسة ومضوا لسبيلهم ونحن ههنا أربعة ونرجو أن نلحق بهم عن قريب إن شاء الله ، ولكن هلى ترون ما أرى ؟ فقالوا: وما ترى يرحمك الله ؟ فقال: ويحكم إني رفعت رأسي إلى السماء انظر إلى هذه الغمامة التي قد أظلت هذا العسكر فرأيت عجا عجيبا وذلك أنني رأيت رجالا لم أر مثلهم ولا مثل صورتهم ساعة قط ، ومعهم خيام بيض لم أر على حسنها شيئا، ونظرت إلى نسوة يطلعن علينا من هذه الغمامة ويضحكن إلى إخواننا هؤلاء الذين استشهدوا فهذا ما رأيت . فعند ذلك اقشعرت جلود القوم ووقفت شعورهم واشتاقوا إلى ما شوقهم إليه صاحبهم بشر بن مطر الأزدي ثم غلبتهم أعينهم بالبكاء والترحم على اخوانهم وجعل بعضهم يقول لبعض إنه يجب علينا أن لا نقصر في جهاد هؤلاء القوم الكفار فعسى الله أن يجمعنا مع إخواننا في مستقر رحمته ^(١) . فنحن نرى هذا المشهد الإيماني الذي تحاض فيه هؤلاء الاخوة على نيل الشهادة والحق باخوانهم الذين سبقوهم ، وفي هذا الموقف (تتساقط صور الحياة الفانية ، وتعلو صور الحياة الباقية ويتلاشى زهو الحياة الباهت وبيبرز خلود الحياة الاصيل وهو يلوح لكل المؤمنين الذين كانت نظراتهم تخسرت حجب الدنيا لتكتمل برؤية الحياة الخالدة) ^(٢) . فلما حان موعد اللقاء كان أول من تقدم منهم إلى الحرب قائدهم ومرغبتهم في الشهادة بشر بن مطر الأزدي فيو الذي رأى ما رأى لذلك ارتجز شعرا أكد فيه نون ريب رؤيته للهور العين التي دعتة للشهادة كي يلحق برفاقه واخوته الخمسة ولم ينس رفاقه الذين معه إذ حثهم على الاقدام معه كي ينالوا الشهادة جميعا ، فقال ^(٣):

فَقَدْ رَأَيْتُ الْهُورَ فِي الْعَمَامِ
حَتَّى تَحَلَّوْا سَاحَةَ السَّلَامِ

مَنْ كَانَ فِي شَكِّ وَفِي تَعَامِي
صَبْرًا هَذَا يَا بَنِي الْكِرَامِ

(١) يُنظر: الفتوح: ٧ / ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) شعراء إسلاميون: ٢١ .

(٣) الفتوح: ٧ / ١٨١ .

بأمثال هؤلاء الرجال واصلت جيوش التحرير سيرها الجهادي نحو أعداء الإسلام، فهذا سعيد بن (١) عمرو الحرشي يقود جيش المسلمين الذي خرج لقتال أهل خراسان فلما وصل جيشه إلى الأعداء تردد قسم من جنده لما رأوا من عدة عدوهم وكثرة عدوهم ، فدب الاضطراب والقلق في صفوف هذا الجيش مما أدى إلى زعزعة روحه المعنوية لكن هذا القائد حسم هذا التردد ، إذ وقف فيهم خطيباً حاثاً على الجهاد والاستشهاد فقال : (إنكم لا تقاتلون عدو الإسلام بكثرة ولا بعدة ولكن بنصر الله وعز الإسلام فقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله) (٢) ، إنَّ هذا القائد يحسن التوكل على الله وإذا ما أحسن الجند التوكل على الله تعالى فإنه يؤديهم بنصره ، ويجعل من قتلهم كثرة ، ومن ضعفهم قوة (٣) ، ثم أنشد هذا القائد شعراً جهادياً باعثاً على الإقدام والتضحية والاستشهاد ، فقائدهم فارس شجاع قد خبر أساليب الحرب لذلك فهو لا يهاب الموت ولا يخشى مصالوة الأعداء ، فحبه للشهادة قد أنساه كل معنى للخوف أو التردد ، فقال (٤) :

فَلَسْتُ لِعَامِرٍ إِنْ لَمْ تَرَوْني أَمَامَ الْحَيْلِ أَطْعَنُ بِالْعَوَالِي
فَأَضْرِبُ هَامَةَ الْجَبَّارِ مِنْهُمْ بَعْضَ الْحَدِّ حُودِثَ بِالصَّقَالِ
أَبِي لِي وَالِدِي مِنْ كُلِّ ذَمٍّ وَخَالِي فِي الْحَوَادِثِ خَيْرَ خَالِ
إِذَا خَطَرْتُ أَمَامِي حَيْ كَغَيْبٍ وَزَافَتْ كَالْجِبَالِ بَثْوِ هِلَالِ

هذا هو (خلق الفرسان الذين يتسابقون إلى مصالوة أقرانهم ، ولا يرتضون بالذل والهوان وإعطاء الدنية في دينهم) (٥) ، فَيَقْتُلُونَ كَرَامًا وَهُمْ يُوَاجِهُونَ الْعَدُوَّ خَيْرَ لِهِمْ مِنْ أَنْ يَقْتُلُوا أَذْلَاءَ بَيْدِ عَدُوِّهِمْ ، لأنهم إن فعلوا الثانية فقد استحقوا الذل والهوان وهو ليس من

(١) هو سعيد بن عمرو الحرشي قائد من الولاة الشجعان وهو من أهل الشام ولاه ابن هبيرة خراسان سنة ١٠٣هـ ،

كان تقياً بطلاً إذ وصفه ابن هبيرة بفارس قس . بطر: تاريخ ابن عساکر: ١٦٤/٦ - ١٦٦ .

(٢) تاريخ الطبري : ١٦٩/٨ .

(٣) بطر: رياض العالخين ومار السالكين: ٢٨٣ .

(٤) تاريخ الطبري : ١٦٩/٨ .

(٥) الفروسية في أدب ق١هـ: ١٦٢ .

خلق الفرسان الذين يستحبون الموت على الحياة^(١)، فهذا عروة بن أد يسه يُجسد ذلك فيقول^(٢):

لَعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى الْفَتَى إِذَا مَا الْفَتَى لَأَقَى الْحِمَامَ كَرِيمًا
وَلَكِنَّمَا ضُرُّ الْحَيَاةِ وَعَارُهَا أَحَالَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ ذَمِيمًا

بل كان أحدهم يتمنى أن يقتل قعصاً برمح أو سيف ثم ترمى أعظمه في مئب

الرياح العواصف ، هذا ما تمناه الطرماح بن حكيم فقال^(٣):

فَأَقْتَلُ قَعَصًا ثُمَّ يَرْمِي بِأَعْظَمِي كَضَعْتُ الْخَلَا بَيْنَ الرِّيَاحِ الْعَوَاصِفِ
وَيُصْبِحُ لِحْمِي بَيْنَ طَيْرٍ مَقِيلُهُ دُونَ السَّمَاءِ فِي نَسُورٍ عَوَائِفِ

لقد حرص قادة جيوش المسلمين في هذا العصر كل الحرص على أن يجعلوا

الشهادة وثمرتها الجنة آخر شيء يسمعه المجاهدون من هذه الحياة الدنيا ، كي يكون ذلك باعثاً له على حياة جديدة عرضها السموات والأرض ، ويتجسد لنا هذا الأمر أكثر

وضوحاً في شخص القائد المجاهد الجراح بن عبد الله الحكمي^(٤) الذي قاد جيش المسلمين إلى قتال الخزر ، وقبل اللقاء بين الجيشين وفي اللحظات الحاسمة أمر هذا القائد أن ينادي

المنادي بالجند (هلموا إلى الجنة لا إلى النار ! هلموا إلى الهدى لا إلى الحبار ! هلموا

إلى الرحمن لا إلى الشيطان ! هلموا إلى الجنان لا إلى النيران)^(٥)، فعندما يسمع المقاتل

هذا الحرص وهذا التأكيد من قائده فإنه يدرك أنه سائر على الحق وأن الشهادة حق ،

(١) ينظر: البطل في شعر الحماسة: ٢٤٨ - ٢٤٩ ، (بحث) للدكتور جليل رشيد فالح ، مجلة آداب الرفادين - العدد الرابع

عشر ، (عدد خاص) ١٤٠١ - ١٩٨١ . ومثالية العرب الحربية وتقاليدها الإنسانية في التراث والأدب: ١٧٠ ، (بحث)

للدكتور عادل حاسم البياتي - مجلة آفاق عربية - العدد الثامن ، ١٩٨٢ .

(٢) شعر الخوارج: ١٢ .

(٣) أنصت لنفسه: ٩٩ .

(٤) هو الجراح بن عبد الله الحكمي أمير خراسان واحد الأشراف الشجعان ، ولي كثيراً من الولايات للحجاج وعمر بن عبد

العزيز ويريد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، وفتح في أمرته خراسان كثيراً من الفتوح واستشهد غازياً إذ قتلته الحيرة

سنة ١١٢هـ . ينظر: الفتوح: ٤١/٨ ، والأعلام: ١٠٦/٢ .

(٥) الفتوح: ٤٠/٨ .

عندها سوف يسعى هذا المقاتل إلى طلب الشهادة بكل حرص وشوق إليها فإذا عارضه أحد من الأعداء في أخذها فانه سوف يمزقه وسيبقى هكذا حتى يأخذ ما يريد .
فأكد رجال هذا العصر ما أكده سلفهم الصالح عندما بينوا أهمية الدور القيادي الذي يقوم به قادة جيوش المسلمين عندما يحرضون جنودهم على الجهاد والاستشهاد .

٢ . الدعوة إلى الله تعالى:

إنَّ هذا الدين الإسلامي العظيم الذي انتشر في الآفاق ووصل إلى كل الأسماع فسي كل زمان ومكان ، فازداد عدد المسلمين وأصبح لهم عالمهم الكبير قد بلغ من العمر (١٤٢٣) عاما .

فلو عدنا إلى الجذر الأساس لهذا الدين العظيم لوجدناه الدعوة الصادقة إلى الله تعالى يوم أن بدأ المصطفى ﷺ دعوته السرية إلى الناس لكي يخرجهم من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد فما زال كذلك حتى استجاب إليه صفوة الخلق صحابته الكرام ، فأزروه ونصروه وغيروا مجرى التاريخ ووجه العالم يوم أن أعلنوا الدعوة العلنية إلى الله تعالى ، فاستجاب لهم من استجاب فأصبحت قلتهم كثرة وضعفهم قوة وتفرقتهم دولة عظمى وهذه الدولة أرسلت جيوشها إلى ملوك العالم أجمع فأزوا عروشهم ونفوذهم وأدخلوا إلى بلادهم نور الإسلام .

يتضح مما تقدم أن أساس هذا الدين هو الدعوة إلى الله فبينا ينتشر وبها يعلو وبها يصل إلى القلب ويختصر المسافات والأزمان أو يلغينا كما إن الدعوة هي واجب من واجبات المؤمن الذي أسلم ثم آمن بالعقيدة فعليه أن يبنيها جهده ووقته (١) فبهذه الصفة صفة الدعوة مدح المولى ﷺ هذه الأمة فقال : ﴿ كُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ تُوعِظُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢) .

(١) ينظر: الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام (دراسة فكرية فنية) ٧٦ ، رسالة دكتوراه - كلية الآداب - الموصل -

علي كمال الدين محمد ، ١٩٩٠ .

(٢) سورة الأعراف: الآية ١١٠ .

وتتجسد هذه الدعوة أكثر وضوحاً في شخص الفتية المدنيتين الذين سبق وأن أشار البحث إليهم . كان هؤلاء الفتية في كل نعمة سابغة لا يأتي يوم من الأيام إلا وهم أشد سروراً وأطول حبوراً من يومهم الذي مضى إلى أن وقع الخبر إليهم بان عبد الملك بن مروان قد وجه جيشاً إلى بلاد الروم ^(١)، فأراد المولى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْقِذَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ ظُلْمَةِ المعاصي إلى نور الإسلام فهدى تعالى يحيى بن عمرو القرشي إلى هديه الكريم وأخوه عمرو ورفاقه لا يعلمون شيئاً عن أمره فما زال كذلك يُجَالِسُهُمْ وهو يتحين الفرص لهدايتهم إلى ما اهتدى إليه . وذات يوم اجتمعوا في مجلس لهم إذ اخذوا يتناشدون الأشعار فيما بينهم فاحب يحيى أَنْ يَسْمِعَهُمْ شَيْئاً مِمَّا قَدْ عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ التَّوْبَةِ وَالنُّزُوعِ مَا هُوَ عَلَيْهِ ، فانتشد قائلاً ^(٢):

أَنَا وَالْمُهَيَّمِينَ ذِي الْجَلَالِ الْوَاحِدِ	قَالَتْ سَلَوْتُ فَقُلْتُ لَسْتُ بِجَاهِدِ
سُلِّحَ النَّهَارِ مِنَ الظَّلَامِ الرَّأكِدِ	وَسَلَّخْتَ وَدَكَ مِنْ فُرَادِي مِثْلَ مَا
فَأَجَبْتُهَا هَيْهَاتَ لَسْتُ بِعَائِدِ	قَالَتْ فَعُدُّ قَالَعُودَ عِنْدِي أَحْمَدِ
تَبْدُو فُضَائِحَهُ وَلَسْتُ بِبَائِدِ	إِنِّي أَخَافُ عَذَابَ رَبِّ سَرْمَدِ

فلما سمع رفاقه واخوته منه هذا الكلام أنكروا عليه وعذلوه لأنهم رأوا في صحوته وفي دعوته تقريق جمعهم وتشتت صحبتهم فأرادوا منه الرجوع عما هو عليه لكن صحوة الإيمان ونشوته تأبى الرجوع فحرك رأسه وأنشدهم مبيتاً رداً إيمانياً بين فيه أنه قد ترك ما كان عليه خوفاً من العذاب الأليم ، ومن نار الجحيم، فعليكم الاتعاظ بذلك وأن تتنبأوا إلى الله تعالى فقال ^(٣):

لَا يُرَى فِي حَوَادِثِ الْأَقْدَارِ	إِنَّ فِي اللَّهِ مَا عَلِمْتُ سُورَراً
وَحَذَاراً مِنْ شَرِّ عَارٍ وَنَارِ	غَيْرِ إِنْ تَرَكْتُ ذَلِكَ خَوْفاً
كَمْ إِلَى كَمْ نُقِيمُ فِي الْإِضْرَارِ	فَأُنْبِئُوا إِلَى إِلَهِهِ وَتُوبُوا

(١) بطر: الفتوح: ١٧٢/٧ .

(٢) انصدر نفسه .

(٣) انصدر نفسه: ١٧٣/٧ .

فكان لهذا الإيمان الصادق صداه وتأثيره في سمع أخيه سليمان بن عمرو إذ قال له: لقد أخذ كلامك هذا بمجامع قلبي وعقلي حتى لقد غلب على سمعي وصدري وحال بين لذتي ، ولقد علمت أن الأمر كما ذكرت وأن الرغبة فيما رغبت ، عندها أنشده شعراً بين فيه توبته النصوح إلى الله تعالى كما أكد مصداقية دعوة أخيه يحيى فقال (١):

يَا مَنْ يَلُومُ مَرْفَقًا يَدْعُوا إِلَى إِسْعَادِهِ
أَبْدَى النَّصِيحَةِ إِذْ دَعَا لَمْ يَأَلْ فِي إِجْهَادِهِ
لَا تُنْكِرُوا مَا قَالَهُ مِنْ بَدْلِهِ لِرِشَادِهِ
فَلَقَدْ أَتَى بِنَصِيحِهِ مَوْضُوعًا بِسُدَادِهِ

إنَّ حرص يحيى على دعوته لآخوته ورفاقه إلى الطريق المستقيم يؤكد لنا صدق إيمانه الذي أكده وأخوه سليمان عندما استجاب لندائه ودعوته كما بين لنا يحيى في حرصه تأثره واستضاعته بقول المصطفى ﷺ : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " (٢) . ويحيى بن عمرو كما تبين ذكره هو أول من هداه تعالى إلى نور الإيمان فاستضاء عقله وقلبه به وتحديداً عندما سمع بمقدم جيش مسلمة بن عبد الملك إلى قتال الروم فأدرك يحيى أن هذا الجيش هو فرصته وطريقه إلى قتال أعداء الإسلام والاستشهاد في سبيل الله تعالى لكن حبه للشهادة لم ينسه حال آخوته ورفاقه الذين ضلوا عن سواء السبيل بل حرص كل الحرص على دعوتهم إلى الحق بإصرار حتى يكونوا من المهتدين ويكونوا صفاً واحداً في هذا الجيش ، كي يشاركوه القتال والاستشهاد فهو لم يحب الخير والهداية لنفسه فقط بل أحبه وتمناه لغيره لان إيمانه الصادق يفرض عليه ذلك فاستجاب لدعوته أخوه سليمان الذي مضى مع أخيه يحيى في دعوة آخوتهما ورفاقهما إلى ما اهتدوا إليه ، ففي إحدى الليالي اجتمعوا جميعاً فجلسوا عندها أقبل عليهم يحيى بن عمرو فقال : يا أخوتي ويا أخلائي ومن تقر عيني بصلاحهم واجتماع كلمتهم ! إنه قد ينبغي للراقد أن يستيقظ من رفته ويستجلي عن غشوته ، فمهما شككتم في شيء فلا

(١) الفتح: ١٧٣/٧ .

(٢) صحيح البخاري : ١٤/١ .

تَشْكُوا فِي الْمَوْتِ وَأَنَّهُ نَازِلٌ بِي وَبِكُمْ وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْعَصْمَةَ وَالتَّوْفِيقَ وَالتَّسَدِيدَ لِي وَلَكُمْ
وَالسَّلَامَ ، فَانْشُدْ قَائِلًا (١):

دَعَوْتُكُمْ لِلرُّشْدِ وَالنُّصْحِ جَاهِدًا وَمَا زِلْتُ لِلْإِخْوَانِ مَذْكُوتٌ نَاصِحًا
فَإِنْ تَقَبَّلُوا نَصِيحِي تَنَالُوا سَعَادَةً وَتَأْتُوا طَرِيقًا بَيْنَ الْقَصْدِ وَاصِحًا
وَمَنْ يَتْرِكِ الْقَصْدَ الْمُنْتَرُطِ طَرِيقَهُ يُلَاقِي غَدًا نَارًا وَيُجْلَدُ كَالْحَا

وهذا أخوه سليمان قد (صاغ مثل الإسلام ، وكثيراً من مبادئه بأسلوب رفيع
وتوجه بنصيحته) (٢) إلى أخوته ورفاقه فقال: يا أخوتي ومن قد عظمت حقوقهم علي
وابيضت أيديهم عندي . إنكم قد علمتم ما افترقنا عليه في ليلتنا الماضية وما دعاكم إلى
التوبة والنزوع عما أنتم عليه فحظكم أصيبتم والى الخير أجبتم وإن تقيموا على ما أرى
من لغظكم واتباعكم أهواكم فإني أسأل الله لكم التوفيق فقال (٣):

سَأَلْتُ الْهَمِيَّ أَنْ يُؤَلِّفَ بَيْنَنَا عَلَى الْخَيْرِ كَالْتَأْلِيفِ فِي سَائِرِ الدَّهْرِ
فَقَدْ عِشْتُمْ عَصْرًا أَوْ عَصْرًا وَإِنَّا لِفِي غَمْرَةٍ جَهْلَاءَ هَمَى وَمَا نَدْرِي
نُدْجَجُ فِي بَحْرِ سُكَّارِي بِحَمِيرَةٍ فَحَتَّى مَتَى لَسْنَا نَفِيقُ مِنَ السُّكَّرِي
وَتُوبُوا تَنَالُوا جَنَّةَ الْخُلْدِ إِنَّمَا يَنَالُ جَنَّاتِ الْخُلْدِ مَنْ كَانَ ذَا صَبْرِ

فيؤذونهم ويذكروهم وينبئهم أنهم في ضلال مبين إن هم أصروا على عملهم فعليهم التوبة
النصوح إلى الله تعالى والصبر على طاعته كي يفوزوا بجنته ، فاعتمد سبيل الوعظ
والإرشاد والنصيحة لتحقيق أغراضه (٤) ، قال تعالى ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٥) فهو (لا يريد من وراء ذلك زلفى أو
جأهاً غير ممتلق أو متهيب لا يخاف في الحق لومة لائم هدفه هدف من قبله من

(١) الفتوح: ١٧٤/٧ .

(٢) الإسلام والشعر: ٨٤ ، د سامي مكى العار .

(٣) الفتوح: ١٧٤/٧ - ١٧٥ .

(٤) دراسات في الأدب الإسلامي: ٢٠٩ .

(٥) سورة الحل: الآية ١٢٦

المصلحين والأنبياء عليهم السلام) (١) ، قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٢) فلما سمع بشر بن مطر الأزدي مقالة يحيى وسليمان بن عمرو استحکم قولهما في قلبه وأعجبه ذلك فقال: لقد علم من أعين عقلا وأحضرهما أين موضع الحق ، ثم أنشد شعراً أكد فيه صدق توبته إلى الله تعالى وإنه قد عزم على جهاد نفسه وعدم طاعتها ومخالفتها عما تهواه ، وإنه سوف ينتصر عليها بقوة صبره فقال (٣):

لَعَمْرِي لَئِنْ بَعْتُ الْهَدَايَةَ بِالْعَمَى وَأَثَرْتُ غَيْرَ الْحَقِّ إِنِّي لَخَاسِرٌ
أَأْتَرِكُ حَظِّي بَعْدَ إِذْ أَنَا قَادِرٌ عَلَى أَخْذِهِ وَاحْتَقُّ فِيهِ بِصَائِرُ
سَاجِرٌ نَفْسِي عَنْ هَوَاهَا وَعَظِيمَا بَصِيرٌ قُوَى الْحَزْمِ وَالْحُرِّ صَائِرُ

فأصبح بشر ثالثاً في ركب قافلة الإيمان التي تنهياً للجهاد والاستشهاد في سبيل الله تعالى فمضى بشر مع رفيقه يدعون من بقي منيم على الضلالة فما زالوا كذلك حتى هدى الله تعالى إلى دعوتها محمد بن زرعة العبدي ويعقوب بن عبد الكريم الأنصاري فيذان الثائبان قد كانا في شك من أمر دعوة رفاقهم الدعاة الثلاثة لكن هذا الشك زال عندما سمع كل منهما في منامه هاتفاً يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وان عليهم للحاق برفاقهم الذين يدعونهم إلى التوبة (٤) ، وفي نداء هذا الهاتف تتجلى دعوة الحق التي اهتدى إليها يحيى وسليمان بن عمرو وبشر بن مطر الأزدي واستفاق على صوتها محمد بن زرعة العبدي ويعقوب بن عبد الكريم الأنصاري إنهما دعوة (تحمل في تضاعيفها الحث على التقوى والعمل الصالح ، فالمسلم الحق من عاش للأخرة ، ورفض عرض الدنيا ، فلم يأخذ منه إلا بحظ محدود ، حظاً يقيم أوده ويعده للكفاح في سبيل الله) (٥) ، فاصبح خمسة تائبين

(١) سورة الدعاة إلى الله: ٤٣ (مقالة) للأستاذ ضياء بدري . مجلة التربية الإسلامية - العدد الثاني عشر - السنة الرابعة

والثلاثون ١٤٢١-٢٠٠٠ .

(٢) سورة هود: الآية ٨٨ .

(٣) الفتوح: ١٧٥/٧ .

(٤) المصدر نفسه: ١٧٥/٧-١٧٦ .

(٥) تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي: ٣٦٩ .

وخمسة حائرين عندما سمعوا هذا النداء ، فانصرف الخمسة الحائرون وهم يفكرون فسي حقيقة ما هم عليه أما الخمسة الذين قد تابوا فدعوا الله تعالى وتضرعوا إليه مخلصين أن يأخذ بقلوب إخوانهم إلى التوبة فما زالوا كذلك حتى استجاب الله تعالى لهم دعاءهم في إخوانهم واخذ بقلوبهم إلى طاعته ، فهذا هارون بن الحصين يكتب إلى يحيى بن عمرو

القرشي معلنا له توبته وانضمامه إلى قافلة الجهاد والاستشهاد فقال : (١)
 نَفْسِي الْفِدَاءُ لِمَنْ جَلَّى الْإِلَهَ بِهِ عَنَّا الْعَمَى وَوَقَاهُ مَوْرِدَ التَّلَفِ
 قَدْ كَانَ مَا بَيْنَنَا فِي الدِّينِ مُخْتَلِفًا فَالْيَوْمَ نَحْنُ جَمِيعًا غَيْرَ مُخْتَلِفِ

فأصبحا أخوين متحابين على أساس هدى الله تعالى وصراطه المستقيم (٢) وينظم إلى قافلة الإيمان أيضا أخوه محمد بن الحصين الذي كتب إلى سليمان بن عمرو يخبره بصدق دعوته وأنه قد آمن بها وتاب إلى الله تعالى صادقا لأنه يخاف من عذاب يوم الحساب فقال : (٣)

أَتَيْتَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ يُقُومُ نَصْحُهَا أَوْدِي
 فَجِئْتُكَ تَائِبًا فِي الْيَوْمِ مَخَوْفًا مِنْ عِقَابِ غَدِ

فلم يبق من الخمسة الحائرين إلا ثلاثة فقط هم احمد بن محمد اليشكري وعبد الله ابن عمرو الطائي وسعيد بن اسماعيل الاسدي ، فإذا ما أراد هؤلاء الفتية التوبة وكانوا في شك من أمرهم فما عليهم إلا أن يحتكموا إلى عقولهم بالحجة والدليل فإذا (ما تدخل العقل بالحجة والدليل وبالمعقول فإنه سيغير كثيراً من الأفكار والقرارات وبالتالي سيكون الحكم) (٤) حازماً وواضحاً لا شك فيه ، فهذا احمد بن محمد اليشكري يزن مصيره بميزان

(١) الفتوح: ١٧٨/٧ .

(٢) يطر: ثلاث بعد صاحبها حلوة الإيمان ٤٣-٤٤ (مقالة) لشيخ عبد احميد سرحان . مجلة التربية الإسلامية

- العدد الثالث - لسة الخامسة والثلاثون ١٤٢١-٢٠٠١ .

(٣) الفتوح: ١٧٨/٧ .

(٤) نقاء السمرة: ٥٤ (مقالة) للدكتورة ميثاق نعمة عبد . مجلة التربية الإسلامية - العدد الحادي عشر - السنة الثامنة

والثلاثون ١٤٢٠-٢٠٠٠ .

العقل عندها أدرك انه في ضلال مبين ، لذلك قرر قبول النصيحة نصيحة محمد بن زرة العبدي فأعلن توبته إلى الله تعالى وكتب إلى محمد يبلغه ذلك فقال : (١)

نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ فَتْيٍ مَنَحَ النَّصِيحَةَ جَاهِدًا
فَأَطِيعَ رَأْيِكَ لَا أَرَى لِلنَّاصِحِينَ مَعَانِدًا

ولم يتأخر عبد الله بن عمرو الطائي هو الآخر في إعلان توبته فكتب إلى بشر بن مطر الأزدي يخبره قبوله دعوته وإعلانه توبته فقال : (٢)

لَقَدَّرَاتُ كِتَابًا مِنْكَ هَيَّجَنِي يَدْعُوا إِلَى اللَّهِ إِسْرَارًا وَإِعْلَانًا
أَجَبْتُهُ وَدَعَوْتُ اللَّهَ مُجْتَهِدًا كَمَا نَكُونُ عَلَى الْخَيْرَاتِ أَعْوَانًا

أما سعيد بن إسماعيل الاسدي فقد كان ختامه ختام المسك إذ ختم ترده بتوبة نصوح عندما قرأ كتاب يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري إذ رأى ما فيه من الحق والهدى، فاهتدى إليه وكتب إلى يعقوب يبلغه ذلك فقال : (٣)

أَتَانِي كِتَابٌ مِنْكَ فِيهِ مَوَاعِظٌ تَحْطُّ عَلَيَّ خَيْرٌ وَتَدْعُونِي إِلَى رُشْدٍ
فَأَبْصَرْتُ مَا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى وَفَارَقْتُ مَنْ أَهْوَى عَلَى أَجْهَدِ الْجَهْدِ

فلما اكتمل عددهم والتم شملهم ثانية على طاعة الله تعالى فرحوا لذلك واستبشروا بهذه النعمة العظيمة وابتهلوا إلى الله جَلَّالَهُ أن يقوي عزمهم على ما عزموا عليه من التوبة والانضمام إلى جيش مسلمة بن عبد الملك بن مروان لكي يشاركوا في قتال الأعداء ويفوزوا بشرف الشهادة ، (فالتضحية وحب الشهادة من القيم العظيمة التي غرسها الإسلام ، والتي كان لها دورها المؤثر في إغناء روحية المجاهدين ، وفي خلق حالة الاستعداد والثبات الدائم في نفوسهم) (١) ، فمضوا في صفوف هذا الجيش الإسلامي وكلهم شوق إلى منازل الأعداء والتضحية بنفوس عزيزة عليهم رخيصة في سبيل الله ،

(١) المترج: ١٧٨/٧ .

(٢) انصدر نفسه .

(٣) انصدر نفسه .

فكان لهم ذلك عندما استشهدوا جميعاً^(٢). إن ما قام به يحيى بن عمرو القرشي من اثر مهم جدا وذلك عندما جند نفسه داعية من دعاة الإسلام فاستطاع بفضل الله تعالى هداية اخوته ورفاقه إلى طريق الحق والنور المبين عندما أعلنوا توبتهم واحد تلو الآخر ، فانضموا جميعاً إلى هذا الجيش الذي نالوا فيه الشهادة فكانت دعوته باعثاً مهماً لهم على توبتهم وإقدامهم نحو الشهادة .

٤. الجهاد في سبيل الله :

أكمل مجاهدو هذا العصر مسيرة سلفهم الصالح في مواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى ينشرون رسالة الإسلام ، ويعلنون كلمته العليا ويبثون دعوته في سائر الأمم والشعوب البعيدة والغريبة^(٣) .

فالحرب في هذا العصر قد اتخذت شكلاً متميزاً وحالة لها مقوماتها الجديدة وحالتها التي أوجدتها طبيعة المرحلة بعد أن توسعت رقعة الدولة وتحركت قوافل جيش التحرير فوق أرض امتدت مساحتها واختلقت شعوبها وتعددت طبائعها وأخرجتها ، وتمازت طبيعة أرضها^(٤) ، وعليه فإن التضحية والاستشهاد في هذا العصر أصبح مجالهما أوسع مما كانا عليه في صدر الإسلام^(٥).

(١) شعر العقيدة: ١٦٦ .

(٢) ينظر: الفتح: ١٨٠/٧ - ١٨٣ .

(٣) يُنظر: من أدب الدعوة الإسلامية: ٨١ .

(٤) شعر الحرب حتى ق ١هـ/ ٢٤٢ .

(٥) يُنظر: المصلى نفسه: ٢٧١ .

ففي السنة التاسعة والأربعين وقيل سنة خمسين سير معاوية بن أبي سفيان جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم للغزاة وجعل عليهم سفيان بن عوف^(١) وأمر ابنه يزيد بالغزاة معهم، وكان في الجيش أيضاً ابن عباس وابن عمرو وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري^(٢) وعبد العزيز بن زرارة الكلابي^(٣) وغيرهم فأوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا القسطنطينية . عندها اقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة ، لكنه لم يقتل فمضى يواصل جهاده لأعداء الإسلام عسى أن يرزق الشهادة ، التي من أجلها عشق الجهاد لأنه طريقه إليها عندها أخذ ينشد شعراً بين فيه سأمه وملله من طول هذه الحياة الدنيا التي قد عاش فيها وأدرك خيرها وشرها ، ولينها وقسوتها ، فهذه التقلبات التي شهدها لم تضعف من عزيمته شيئاً بقدر ما زادت من رغبته وحببه للشهادة التي مضى مجاهداً يبحث عنها في صفوف المقاتلين ، فقال^(٤) :

قَدَّ عَشْتُ فِي الدَّهْرِ أَطْوَاراً عَلَى طُرُقِي شَتَّى فَصَادَفْتُ مِنْهَا اللَّيْنَ وَالْبَشْعَا
كَأَنَّ بَلَوْتُ فَلَا النُّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي وَلَا تَحْشَعْتُ مِنْ لَأْوَانِهَا جُرْعَا
لَا يَمَالُ الْأَمْرُ صُدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذِرْعَاً إِذَا وَقَعَا

(١) هو سفيان بن عوف الأزدي العامدي قائد صحابي شجاع كان مع أبي عبيدة بن الجراح بالشام حين افتتحت رولاء معاوية بن أبي سفيان الصائفتين ، فظفر واشتهر ثم سبىه بجيش إلى بلاد الروم فأوغل فيها إلى أن بلغ أبواب القسطنطينية ، وتوفي في مكان تسمى الرنداق . يُنظر: تاريخ ابن عساكر: ١٨٣/٦ - ١٨٥ ، والإصابة: ١٠٦/٣ - ١٠٧ .

(٢) هو خالد بن يزيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد ابن عوف بن غنم بن مالك بن الحارث بن عبد العزة بن دبر بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ توفي بالقسطنطينية من أرض الروم سنة خمسين في خلافة معاوية تحت راية يزيد . فهو إن شاء الله شهيد في سبيل الله لأنه مات مجاهداً في سبيله وقد تقدم ذكر دليل الذي يبين ذلك . يُنظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر : ٣٣/٣ ، علي بن الحسن المسعودي ، والإستيعاب: ١٦٠٧/٤ ، والإصابة: ٨٩/٢ - ٩٠ .

(٣) هو عبد العزيز بن زرارة بن حرب بن عمرو الكلابي قائد من الشجعان القدمين في زمان معاوية كان في مس غزاة القسطنطينية وأبلى في قتال الروم بلاءً عالياً وما زال كذلك حتى استشهد . يُنظر: شرح ديوان الحماسة: ٢٢١/٤ ، للحطيط التميمي تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد ، وتاريخ ابن عساكر : ٣٧٣/٥ ، والكامل في التاريخ: ٤٥٩/٣ .

(٤) الكامل في التاريخ: ٤٥٩/٣ ، ويُنظر: المعري في حبر من غمر: ١٣٤/١ - ١٣٥ .

ثم حمل على من يليه فقتل منهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماهم حتى قتلوه شهيداً فبلغ استشهاده معاوية فقال لأبيه: والله هلك فتى العرب ، فقال: ابني أو ابنك ، قال: ابنك فأجرك الله (١).

فكانت شجاعة عبد العزيز وتضحيته في سبيل الله تعالى دافعاً لكي يواصل الجيش جهاده لأعداء الإسلام ، فمضى هذا الجيش لغايته حتى وصل إلى الخليج وهو بحر دون القسطنطينية عندها نقل أبو أيوب وثقافم عليه المرض واشتدت عليه وطأة الأيام حتى أتاه القائد عائداً فقال له: ما حاجتك أبا أيوب ؟ فقال: أما دنياك فلا حاجة لي فيها ولكن قدمني ما استطعت في بلاد العدو ، فلما مات وهو على مقربة من السور أمر القائد بتكفينه وحمل على سريره ثم أخرج القائد الكتائب فجعل قيصر يرى سريراً يُحمَلُ والناس يقتتلون . فأرسل إلى القائد ما هذا الذي أرى ؟ قال: صاحب نبينا وقد سألنا أن نقدّمه في بلادك ونحن منقذون وصيته أو تلتحق أرواحنا بالله تعالى (٢) .

لقد كانت عزيمة هذا الصحابي الجليل (رمزاً للبطولة النادرة ، وهو يتخطى عتبات العمر المديد ، ... وقد آلى على نفسه عهداً ، وأخذ عليها وعداً بأن يحقق أمنيته... التي اقترنت بروح الجهاد ، والمقاومة واندفعت بإيمان العقيدة ، فكانت ألواناً زاهية في عالم الحرب وقدرات ماثلة لكل المقاتلين الذين تحركت فسي قلوبهم نوازع الاستشهاد وهم يقرعون في وجه المجاهد الكبير علامة الرضا ويحققون في صلابته صدق العقيدة ، ، وتظل نظراته التي تعلقت بأسوار المدينة العظيمة تخترق كل المسافات والمتاهات لتستقر على جانب من جوانبها الذي لمع في ذهنه حفرة ظاهرة تحف بها ملائكة الرحمن وتنزل عليه فيها شأبيب الرحمة) (٣) .

وشعراء هذا العصر هم أيضاً أحبوا الشهادة فهم كأسلافهم شعراء صدر الإسلام الذين رأيناهم يشاركون إخوانهم الجهاد حياً في الشهادة ، فاقتدوا بهدي سلفهم الصالح وساروا على نهجهم فواكبوا (حملة التحرير يحملون أرواحهم مع المجاهدين ويعيشون المعارك ، ... ، ولم تكن سيوفهم بعيدة عن المعركة ولا خيولهم غريبة عنها فهم أبناء

(١) يُنظر: الكامل في التاريخ: ٤٥٩/٣ ، وينظر: العبر في خبر من غير: ١/١٣٤ - ١٣٥ .

(٢) يُنظر: الإستيعاب: ١٦٠٦/٤ - ١٦٠٧ ، وشعر الحرب حتى ق١هـ/٢٤٨ .

(٣) شعر الحرب حتى ق١هـ / ٢٤٨ - ٢٤٩ .

ورجالها ، وهم وحدة صادقة لا تتجزأ عن وحدة المجاهدين ^(١) ، وذلك (بعد ان نذروا أنفسهم جنودا في مواكب الإسلام) ^(٢) فاستطابوا الحياة في ظل السيوف المسلولة ، واستطعموا الراحة في رفقة المجاهدين الذين يكتبون التاريخ بدمائهم الطاهرة .

لقد (كانت الشجادة أمل كل مقاتل) ^(٣) يخرج ملييا نداء الجهاد ففي سنة ٦١هـ — أغار سلم بن زياد ^(٤) على سمرقند وانفذ فرقة إلى خجندة ^(٥) ، فانهزمت هذه الفرقة وكان أعشى همدان أحد الجنود الغازين المغلوبين فانشد شعرا بين فيه اسفه لانكساره مع غيره من الجنود وتمنى ان يكون شهيدا وقد تخضب بدمائه التي سالت في سبيله تعالى حتى يلقي الله وهو راض عنه فقال ^(٦) :

لَيْتَ خَيْلِي يَوْمَ الْخِجَنْدَةِ لَمْ تُكْرَمَ وَغُودِرْتُ فِي الْمَكْرِ سَلِيًّا
تَحْضُرُ الطَّيْرُ مِصْرَعِي وَتَرُوحُ حَتَّى إِلَى اللَّهِ بِالْدمَاءِ خَصِيًّا

(١) يُنظر: شعر الحرب حتى ق١١هـ/٢٦٣ .

(٢) شعر العقيلة: ١٥٥ .

(٣) نظرات في شعر صدر الإسلام: ٤٩ .

(٤) هو سلم بن زياد بن أبيه أمير من آل زياد ، ولاء يزيد بن معاوية خراسان فذهب إليها وغزا سمرقند كما كان جواداً وأحبه الناس ومدحه الشعراء ، توفي بالبصرة. يُنظر: النجوم الزاهرة: ١/١٩٠ ، ويُنظر: تاريخ ابن عساکر: ٦/٢٣٧ - ٢٣٩ .

(٥) خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر . يُنظر: معجم البلدان: ٣/٢١٦ .

(٦) شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي : ٥٨١ ، جمعه وحققه عبد العزيز محمد الزبير ، الشعر العربي بخراسان في العصر

الأموي: ١٥٦ . د . حسين عطوان .

بهذه النفوس (المتوثبة للشهادة اندفع المقاتلون إلى سوح الجهاد فخاضوا معارك ضارية وواجهوا جيوشا تفوقهم عددا وعدة ، وفي أرض يجهلون معالمها وعوارض طبيعية لم يتعودوها في أيامهم قبل الإسلام ، وحصون وقلاع منيعة يصعب اقتحامها)^(١) لكن ذلك لم يثن من عزيمة (المجاهدين الذين استرخصوا الدماء دفاعا عن الأرض وإيماننا بالعقيدة وحماية لكل ما يدافع عنه الإنسان)^(٢) كما إن (الحرب وروح الجهاد افضل للعربي المسلم من أي مخلوقٍ سواه)^(٣) لأنه عن طريقهما ينال الشهادة لذلك واصلت قوافل التحرير مسيرتها الجهادية وتدفقت معها موجات المجاهدين الذين وجدوا في الجهاد حقا مشروعا وتضحية مقبولة وطريقا لتأكيد الإيمان الصادق^(٤) ، فهذا خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان ينادي بالناس وجمعهم في المسجد الأعظم ثم صعد المنبر فحمد الله واثى عليه وقال : أيها الناس ان العدو قد تكالب عليكم ، وطمع فيكم فماذا عندكم من الرأي ؟ فأجابه الناس بأحسن الجواب ورغبوا فيما رغبتهم فيه من الجهاد وعزموا على ذلك ، ثم اجتمع الناس من الأمصار بعد ان توجه إليه فرسان الحجاز ورجال اليمن وفرسانها وأجناد مصر والعراق ، وقبل ان تتحرك قوافلهم اجتمع فيهم فقال: أيها الناس إنكم قد علمتم ما ذكر الله ﷻ في كتابه من فضل الجهاد ، وما وعد الله عليه من الثواب ألا وإنني قد عزمتم ان أغزو بكم غزوة شريفة ، بعد ان طغى صاحب الروم ويغى ، وقد بلغني انه قد جمع للمسلمين جموعا كثيرة وعزم على غزوكم

(١) الفروسية في أدب ق ١هـ : ١٦٦ .

(٢) شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٦٢ .

(٣) مثالية العرب الحربية وتقاليدما الإنسانية في التراث والأدب : ١٧٠ .

(٤) يُنظر : شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٧٣ .

ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت ان الله مهلكه ومبدد شمله وجاعل دائرة السوء عليه وعلى أصحابه وانتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته ، هذا ابني مسلمة قد أمرته عليكم فاستمعوا إليه وأطيعوه يوفقكم الله ، انتم إخواني وأعواني وهو سيفي ورمحي ورجوت أن يقضي الله به على جيش الروم ، فسار الجيش بقيادة مسلمة حتى نزل بمرج دابق^(١).

عندها خرج إليه الناس من كل مكان يلتحقون به من كل موضع راغبين في الجهاد لانه طريقهم إلى الشهادة فمأزواوا كذلك حتى صار مسلمة في عسكر عظيم مهياً لقتال الروم^(٢).

إن جيوش هذا العصر لا تختلف عن سابقتها جيوش صدر الإسلام التي قدم لنا مجاهدوها أروع صور الفداء والتضحية ، فجيوش هذا العصر أدركت أهمية الجهاد وآمنت بحقيقة الرسالة التي أذن الله بها لهذه الأمة ان تعد نفسها لحملها ، فقدم لنا مجاهدوا هذا العصر أروع صور الفداء والاستشهاد وهم يقاتلون الأعداء على أرض امتدت مساحتها ، واختلفت شعوبها^(٣) ، فلما التقى الجيشان وتنازل الفرسان تقدم هارون بن الحصين إلى قتال الأعداء فتنازل مع عالج من الأعداء إذ تمكن الأخير من طعنه ليسقط هارون شهيداً رحمه الله تعالى ، فتقدم بعده أخوه احمد بن الحصين نحو هذا العالج فضربه ضربة على فخذة ففقطعها وسقط منها قتيلاً .

(١) دابق: قرية قرب حلب . يُنظر : معجم البلدان: ٢٧١/٤ .

(٢) يُنظر : الفتح: ١٦٧/٧ - ١٧٠ .

(٣) يُنظر : شعر الحرب حتى في ١هـ/٢٤٣ .

وما أن قتله احمد بن الحسين حتى خرج إليه عالج آخر يقال له بولص (١) ،
فنظر إليه احمد وقصد نحوه دون ان يجزع من الموت بل هو حريص على الشهادة كما
يحرص أعداء الإسلام على الحياة (٢) فأنشد (٣):

دُونَكَ حَرْبًا لَا تَقِيهِ تَرْسِي صَبْرًا عَلَى الْمَكْرُوهِ مِنِّْي نَفْسِي
كَيْمَا أَنَالَ مَثْرَلًا فِي الْقُدْسِ فَإِنَّمَا الدُّنْيَا كَيَوْمِ أَمْسِي

فاختلفا ضربتين إذ طعنه العالج في خاصرته جعله قتيلا شهيدا "رحمه الله تعالى" (٤) .
بأمثال هؤلاء المجاهدين الذين حرصوا على الشهادة كان النصر حليف المسلمين (٥) ،
وبعد كل نصر لهذا الجيش يواصل مسلمة بن عبد الملك بن مروان (الدور القيادي له
في نقل التشريع الإلهي الذي أودعه الله أمانة في أعناقهم وبلغه إلى الرسول صلوات الله
عليه ، وقد تحولوا إلى دعاة وهداة ، ينشرون باسم الله رسالتهم ويضعون أمام الناس
حقائق التنزيل المرسل تملوهم نفحة الإيمان الخالد ، وتشددهم صلابة العقيدة الراسخة ،
وتدفعهم قدرة التضحية والجهاد ، وانساحوا جيوشا متراسة (٦) لفتح البلاد الباغية ومنها
بلاد عمورية (٧) ، التي تحصنت بكثرة رجالها وقوة عتادها ضد جيش مسلمة ، لكنها ما

(١) يُنظر: الفتوح : ١٨٠/٧ .

(٢) يُنظر: شعر الفتوح الإسلامية: ٢٧٥ .

(٣) الفتوح : ١٨٠/٧

(٤) يُنظر: المصدر نفسه .

(٥) يُنظر : المصدر نفسه : ١٨٠/٧-١٨٣ .

(٦) شعر الحرب حتى ق ١هـ : ٢١٦ .

(٧) عمورية : بلد في بلاد الروم . ينظر: معجم البلدان: ٣٥٥/٦ .

تعلم ان جيش المسلمين لا يقيس النصر بمقياس مادي كما هم يفعلون بل يكون الإيمان الصادق والحرص على الجهاد في سبيل نشر راية الإسلام هو مقياس المسلمين ، فالتقى الجيشان وتقاتل الفرسان قتالا شديدا . ولم يكن الشعر بعيدا عن جو هذه المعركة بل كان متواجدا في كل جوانبها إذ أسهم في (تحريض المؤمنين على الجهاد ومواصلة الكفاح ، وكان من ابلغ الوسائل في استنهاض الهمم ، ... ، فانشده الجنود يستحثون به رفاقهم في السلاح والعقيدة على مواصلة الجهاد والنضال) (١) . فهذا عبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان العبدي يتقدم الصفوف أمام المسلمين وأخذ يرتجز شعرا أكد فيه شجاعته وقدرته على قتال الأعداء فهو يريد الشهادة من جهاده هذا ولا شيء غيره ، كما حدث أصحابه على مواصلة الجهاد وعدم الخوف من كثرة الأعداء ، فإنها لا شيء أمام الله تعالى بل الذي يجب على المجاهد ان يخاف منه هو الله تعالى فقال (٢) :

أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ جَدِّي صَعَّعَهُ ذُو الْبَاسِ وَالْإِقْدَامِ عِنْدَ الْمَعْمَعَةِ
 إِذَا تَقَى الْأَبْطَالُ وَسَطَ الْمَعْمَعَةِ وَالرُّومُ قَدْ سَارَتْ إِلَيْنَا مُجْمَعَةً
 وَمَنْ يَخَافُ اللَّهَ فَاللَّهُ مَعَهُ

فحمل عبد الرحمن على الأعداء يقاتلهم حتى رجع مجروحا ، ثم تقدم محمد ابن مروان أخو عبد الملك بن مروان فأخذ يرتجز شعرا بين فيه عزمه على قتال الأعداء بسيفه الصارم الحسام فهو أترك السعادة التي يحصل عليها الإنسان في الآخرة عندما يقتل

(١) الإسلام والشعر: ١٠٣-١٠٤ د. سامي مكي العاني .

(٢) الفتح: ١٦٥/٧ .

في سبيل العقيدة (١) ، فقال (٢) :

أَنَا ابْنُ مَرَوَانَ إِذَا الْهَيْجَ اضْطَرَمَّ
بُصَارِمِ عَضْبِ حَسَامِ ذِي صَرَمِ
أُكْرَ فِي الْحَرْبِ كَلَيْثٍ مُقْتَجِمِ
كَذَاكَ شَيْخِي كَانَ قَدَمًا وَالْحَكْمِ

فقاتل الأعداء وحمل عليه شمعون بنفسه فطعنه طعنة منكرة رجع على أثرها محمد إلى صفه فما زالت رعى المعركة دائرة بين الجيشين فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كان للمسلمين نهايتها (٣) .

وكعادته مسلمة فقد واصل السير الجهادي نحو أعداء الإسلام فلما اقترب من المسيحية خرج إليه الروم في سبعين ألفاً فدنا القوم بعضهم من بعض واقتتلوا قتالاً شديداً إذ حملت الروم على عسكر المسلمين وجعل افریطون وشماس البطريق يحملون على المسلمين ويقتلون منهم (٤) ، لكن (المؤمن الذي يقاتل الكافرين ، ويعرض نفسه للموت نصره للمبادئ الفاضلة التي أمر الله بتعزيزها ونضالاً عن العقيدة التي هي جماع الخير وعمود البر) (٥) ، لم يتراجع أو يتردد عن مواجهة عدو الله الكافر فهذا البطال بن عمرو أحد شجعان المسلمين الذين خرجوا يجودون بأنفسهم في سبيل الله تعالى يتقدم نحو عدو الإسلام قائد الروم (٦) ، وقد عزم على قتاله وقتله فأمر نفسه أن تجود بالجهاد في قتال هذا العدو علماً تفوز بالشهادة ، فقال (٧) :

لَا بُدَّ مِنْ عَرْضِ وَمِنْ مَقَامِ
فَجَاهِدِي يَا نَفْسُ لَا تُلَامِي
عَلَىٰ مَلِيكَ صَمَدٍ مَنَعَامِ
بِكُلِّ عَضْبٍ ذَكَرَ حَسَامِ

(١) يُنظر: الأديب والانتزام: ٦١ .

(٢) الفتوح: ١٨٥/٧ .

(٣) يُنظر: المصدر نفسه: ١٨٥-١٨٨ / ٧ .

(٤) يُنظر: المصدر نفسه: ١٩٠/٧-١٩١ .

(٥) كيف السبيل إلى الله . الجهاد والاستشهاد في الإسلام : ٦١-٦٠/١٦ .

(٦) يُنظر: الفتوح : ١٩١/٧ .

(٧) المصدر نفسه .

فحمل للبطل على أفریطون والتقىا بطعننن طعنه البطل طعنة جعله قتلا ، ثم نزل فاحتز رأسه ورفعه على راس رمحه ثم كبر ، وكبر المسلمون معه فلما نظرت الروم إلى راس قائدها انكسرت وانتصر المسلمون (١) .

وأمثال البطل كثر من المجاهدين الذين إذا ما دعت الدواعى وجدتهم في المقدمة من الصفوف يواجهون العدو بوجه غير متخاذلة ولا هيابة (٢) . فواصل جيش المسلمين وهو يمتلك هواء الأبطال انتصاراته وهو يدك الحصون (٣) ، ففي إحدى هذه المعارك التي خاضها المسلمون جعل أحد بطارقة الروم يحمل على المسلمين فلا يلحق أحدا إلا قتله (٤) ، فتحاماه الناس لكن البطل بن عمرو لم يكن بعيدا عن هذا البطريق ولم يتردد لحظة في مواجهته وقتاله فهو مجاهد مؤمن بالله تعالى يواجه المواقف الحاسمة بقلب يعشق التضحية إلى درجة الاستشهاد (٥) ، لذلك أدرك هذا القائد فضل الجهاد فهو طريق الشهادة ، فانشد وقد عزم على قتل هذا الكافر (٦) :

هَذَا لِأَنِّي قَدْ أَرَدْتُ قَتْلَهُ إِنَّ الْجِهَادَ قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ

(١) يُنظر: الفتح - ١٩١/٧ - ١٩٢ .

(٢) يُنظر: البطل في شعر الحماسة : ٢٥٧ .

(٣) يُنظر : الفتح : ١٩٢/٧ - ١٩٦ .

(٤) يُنظر: المصدر نفسه : ١٩٦ / ٧ .

(٥) يُنظر: شعر العقيدة : ١٧٤ .

(٦) الفتح : ١٩٦/٧ .

إن حرصهم على الموت أكثر من حرصهم على الحياة واندفاعهم من أجل الاستشهاد أكثر من تراجعهم حباً في الدنيا (١) .

إن أعمال مجاهدي هذا العصر وما أبدوه من تضحيات رائعة كان لوحدة أخرى رائعة جسدت وبشكل جلي حب رجال هذا العصر لطريق الجهاد في سبيل الله تعالى ، لأنه طريق المجاهدين إلى الشهادة .

٥. الفوز بالجنة

لقد أحالت الآيات الكريمة التي وصف بها المولى تبارك وتعالى جنان الخلد وما فيها من نعيم دائم ، كذلك أحاديث المصطفى البشير محمد ﷺ التي بين فيها هذه المنزلة العظيمة والدرجة الرفيعة التي أعدها تبارك وتعالى لمن يقتل أو يموت شهيداً في سبيله تعالى رجال صدر الإسلام إلى مشاريع استشهاد دائمة ومتواصلة إلى الجنة فما زالوا كذلك حتى رزق الله تعالى من شاء منهم الشهادة وثمرتها الجنة ، وأبقى تعالى من شاء منهم إلى أجل مسمى .

ولم تضعف هذه الرغبة وهذا الحنين عند مجاهدي هذا العصر تجاه الشهادة بل مضوا يطلبون الاستشهاد حتى يدخلوا الجنة من أوسع أبوابها ، وكانوا كلما فتحوا بلداً وانتصروا في معركة ضد أعداء الإسلام اشتدت بهم حماسهم إلى الشهادة فيطلبون معركة جديدة وهم مؤمنون كل الإيمان بأن الجنة تحت ظلال السيوف (٢) ، فلا عجب ان تتشابه

(١) شعر الحرب حتى ق ١٢٤/هـ .

(٢) يُنظر: البطولة في الشعر العربي : ٤٤-٤٥ .

(سعادة الاستشهاد بعد ان أدرك هذه الإنسان واقتنع بثواب الأخررة، وخلود الحياة ، واستبشاره بلقاء الموت بأي شكل من الأشكال واستدباره الحياة بكل متاعها الزائل) (١).

لقد تحول كل واحد منهم إلى مجاهد شاكي السلاح يطلب الموت والشهادة في سبيله تعالى ، وأما جماعاتهم فقد تحولت إلى كتائب حربية تُقبل على الموت بنفوس متشوقة إليه ، فكأنه الباب الموصل بينها وبين فراديس الجنان لذلك فهي تريد اجتيازه حتى تنتقل إلى حوار الملأ الأعلى في جنان الخلد (٢) ، فهذا محمد بن زرعة العبدي الذي انظم مع اخوته ورفاقه إلى جيش مسلمة بن عبد الملك المتجه إلى قتال الروم يتقدم نحو الأعداء ويرتجز شعراً يرغب فيه نفسه على الإقدام نحو الشهادة ، فهو مؤمن بأن (الموت لا بد منه ، وما دام الإنسان يموت فالأجدر به ان تكون ميته في الحرب ، لأنها أولى من غيرها لما فيها) (٣) من الأجر العظيم ، فيها ينال الشهادة ويلحق بإخوانه الخمسة في جنات عدن ليس فيها تعب ولا عناء فقال (٤):

إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مَصِيرِي لِلْفَنَاءِ فَمَا مَقَامِي بَعْدَ حَمْسٍ هَهُنَا
إِنْ نِلْتُ مَا أَبْغِي فَقَدْ نِلْتُ الْمُسْنَى جَنَاتِ عَدْنٍ لَيْسَ فِيهَا مَنْ عَنَّا

(١) شعر الحرب في عصر الرسالة: ٤٧ .

(٢) يُنظر : البطولة في الشعر العربي : ٥٤ .

(٣) البطولة في الشعر العربي : ٥٤ .

(٤) الفتوح: ١٨٢/٧ .

(ومما زاد في انطلاقهم إلى ميادين الجهاد ، واستعدادهم العالي للتضحية إيمانهم المخلص بزوال هذه الدنيا وفنائها ، واعتقادهم الراسخ بخلود الآخرة) (١) قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَهْوٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) لذلك لم يتأخر احمد بن محمد اليشكري عن الإقدام نحو العدو وقتاله فهو أدرك أنه لا خير له في العيش بعد أصحابه الشهداء الخمسة فقد نال ما يكفيه من هذه الحياة الفانية ، فعزم على الإقدام ومواصلة القتال فلا يرجع إلا وهو شهيد محمول قد نال الشهادة فيحل في جنان الله تعالى فقال (٣) :

لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ صَحْبِي حَسْبِي مِنَ الْعَيْشِ حَسْبِ حَسْبِي
لَا أَرْجِعُ الْيَوْمَ وَأَقْضِي نَجْبِي ثُمَّ أَحْلُ فِي جِنَانِ رَبِّي

فحمل هؤلاء الفتية على الأعداء واقتتلوا قتالا شديدا وهم يخوضون غمرات الموت دون خوف أو تردد بل كانوا (يتوسطونها ، ويصيرون فيها ، ولا يعدلون عنها ، يقاسمون الخصوم سيوفهم ، فتكون المضارب فيهم والمقابض في أيدي الفرسان) (٤) ، فحمل

(١) شعر العقيدة: ١٦٧ .

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٢ .

(٣) الفتح: ١٨٢/٧ .

(٤) البطل في التراث العربي: ٣٣ .

يعقوب بن عبد الكريم على الأعداء يريد بها بلوغ باب الحصن عندها لحق به اخوته الثلاثة فقاتلوا جميعاً بعضهم إلى بعض حتى صاروا إلى باب حصن طوانة^(١) ، فجعلوا يقاتلون أشد القتال حتى انكشفت الروم من بين أيديهم كشفة قبيحة وانصرفوا إلى حصونهم وأسوارهم يختبئون خلفها^(٢) . فلما رأى المسلمون ذلك انقسموا لى قسمين : قسم يقاتلون وقسم ينقبون السور فما زالوا كذلك حتى أحدثوا في السور نقباً واسعاً كان كفيلاً لأن يكون يعقوب بن عبد الكريم أول المتقدمين إلى الأعداء إذ دخل هذا المجاهد من هذا النقب إلى حصن الأعداء وجعل يقاتل أهل الحصن وحده فما زال يقاتلهم حتى قطعت إحدى قدميه^(٣) . لكن هذه القدم التي فقدتها لم تنته عن مواصلة القتال لأنه مؤمن صابر على مصابه كما أنه قد احتسبها عند الله تعالى الذي سيرفع درجته ويزيد ثوابه^(٤) ، فوثب قائماً على فرد قدم يقاتلهم وهو يرجو أن ينال الجنة التي سبقه إليها أولئك الفتية فإذا ما اضطربت الحرب واصل القتال وهو حريص الحرص كله على الشهادة دون أن يتقهقر لأنه يخاف الله تعالى ، فقال^(٥) :

أَرْجُو جَنَانًا حَقَّقَتْ كُلَّ النَّعَمِ مَعَ فِتْيَةٍ كَانُوا لِعَمْرِي كَالْبَهْمِ
فِي مَجْمَعِ الْحَرْبِ إِذَا الْحَرْبُ اضْطَرَمَّ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ذِي النَّقَمِ

فلم يزل الأنصاري يقاتلهم وحده ويدفعهم عن ذلك حتى دخل إليه اخوته الثلاثة فأعانوه ودفعوا الروم عن ذلك النقب ، ثم إنهم كبروا وصاحوا بأصحاب مسلمة فدخل الناس من ذلك النقب وفتحوا باب الحصن والأنصاري ينزف الدم من رجله حتى مات شهيداً رحمه الله وقتل اخوته الثلاثة الذين كانوا معه "رحمهم الله"^(٦) .

إن هذه المنزلة الرفيعة ما أدرك فضلها وعرف قيمتها العربي المسلم بل وجد البحث أن من غير العرب قد أحبوا هذه المنزلة العظيمة وعرفوا فضلها وأجرها عند الله تعالى

(١) ضوانة : بلد شعور المصيبة . يُنظر: معجم البلدان: ٢٢٩/٦ .

(٢) يُنظر: الفتوح: ١٨٢/٧ .

(٣) يُنظر: المصدر نفسه : ١٨٣/٧ .

(٤) بظر : الشعر العفيدة: ١٧٤ .

(٥) الفتوح: ١٨٣/٧ .

(٦) يُنظر: المصدر نفسه .

ففي جيش القائد المجاهد الجراح بن عبد الله الحكمي كان رجل مجوسي اسمه مردان شاه قد قال للجراح وهو ينوي الهجوم على الأعداء: (أيها الأمير أستم تزعمون في دينكم أن الرجل إذا كان مخالفا لكم ثم إنه شهد بشهادة الحق وضرب بسيفه في المشركين حتى يقتل فإنه في الجنة شهيد؟ فقال له الجراح: بلى يا مردان شاه! إنا نقول ذلك ولا نشك فيه! فخرج الدهقان بسكين كان معه فقطع كشحا كان في وسطه ، ثم نزع ثيابه وشهد بشهادة الحق ثم أخذ سيفه وتقدم نحو الخزر فلم يزل يقاتل حتى قتل) (١) .

هكذا كان سعيهم وحرصهم على الشهادة التي بها ينتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء وفي جنات عرضها السموات والأرض .

(١) الفتوح: ٤٠/٨ .

المبحث الثاني

صفات الشهيد

١. الشجاعة:

عرفنا الشجاعة صفة من صفات عدة اتصف بها العربي في مجتمعه قبل الإسلام ، الذي شهد حروباً كثيرة دامت أياماً طويلاً ، أما بسبب اقتصادي وهو الإغارة على قبيلة والاستيلاء على ممتلكاتها ، أو بسبب قبلي تعصبي وهو الأخذ بالثأر ، فشجاعة العربي قبل الإسلام لا تتعدى هذين المجالين أو المنفذين .

أما في عصر صدر الإسلام فإن مقياس الشجاعة قد تبدل ، فتحولت إلى سلاح خدم الدعوة الإسلامية من خلال شهداء تلك العصر الأبرار ، الذين تجسدت في أفعالهم الشجاعة خير تجسيد ، فعرفناهم أبطالاً منذ الوهلة الأولى ، منذ أن كانوا دعاء مستضعفين ، وأصبحوا نماذج تقتدي حين قاتلوا الكفار وهم قلة منتصرون ، فهابهم الأعداء وخشي لقاءهم الفرسان ، فدخلوا بلاد أعدائهم فاتحين ومحررين وهادين إلى الخير المبين . إنَّ شجاعة شهداء عصر صدر الإسلام كانت حافزاً ودافعاً لمجاهدي هذا العصر

على مواصلة المسيرة وإبلاغ الرسالة ، فانطلقت جيوش المؤمنين إلى بلاد بعيدة غريبة ، وهي تستمد عزيمة من بطولات أولئك الرجال ، رجال بدر وأُحد ، وحنين واليمامة والقادسية (التي وضعت بداية موفقة للانتقال إلى واقع جديد تحركت فيه عناصر الاقتدار وتوافقت في قيادته روح الإبداع وبرزت في كل مجالاته صورة التمكن الفذ والتحدي الواضح والقيادة الحكيمة) (١) ، فأصبح المجاهدون يحاربون (دفاعاً عن العقيدة وذبا عن شربعتها وحماية لحياضها وأوطانها ، فهو قتال لمبدأ لا لسيوى ولا لثأر) (٢) ، فهم (أدركوا هذا تمام الإدراك يوم أن اتخذوا هذه العقيدة ديناً ، ويوم توحدت كلمتهم على هذا الدين الذي بث فيهم أحاسيس ومشاعر سامية وأبدلهم من بعد ضعف قوة ، وجعلهم يشعرون بأنهم دائماً منتصرون ما داموا جنداً في سبيل إعلاء كلمته) (٣) . وتجسدت لنا هذه الأحاسيس وهذه المشاعر الإيمانية في شخص عبد العزيز بن زارة بن حرب الذي

(١) اتجاهات جديدة في شعر الحرب في القرن الأول الهجري: ٢٨٨ .

(٢) اتجاهات في شعر عصر الرسالة: ١١٨-١١٩ .

(٣) شعر الفتوح الإسلامية: ٢٧٤ .

رأينا يقاتل الأعداء بشجاعة الليوث وهو يتعرض للشهادة فما زال يقاتل بهذه البطولة وهو يقتحم الصفوف حتى فاز بمرتبة الشهادة في سبيله تعالى ، فلما وصل نبا استشهاده إلى مسامع أبيه استنكر شجاعته فقال (١) :

أَلَا زَانَ قَتْلُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَصْلَى الحُرُوبِ وَسَدِ الثُّغُورِ

إن الشجاعة كانت سلاح مجاهدي هذا العصر في نيل الشهادة فلولا شجاعتهم ومعرفتهم بأساليب الحرب والقتال ما استطاعوا مواكبة قوافل الفاتحين وخوض المعارك التي خاضتها هذه القوافل وما استطاعوا الإقدام نحو الأعداء ومبارزة فرسانهم وقتل قسما منهم، فعندما سار القائد المجاهد مسلمة بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الروم التحق به الفتية المدنيون الذين اثبتوا حبهم وحرصهم للفوز بمرتبة الشهادة في سبيله تعالى فلما دارت الحرب وعلا صوت صليل سيفها قتل هارون بن الحصين وأخوه احمد شهيدين في سبيل الله تعالى بعد ان قاتلا الأعداء بشجاعة وثبات (٢)، وتبقى (صور البطل والمعركة تثير في النفوس الاندفاع والاستبسال من أجل الاستشهاد والدفاع وتذكي عناصر الحماسة والافتتال والجلاد للوقوف فوق أرض المعركة وقوفاً مشرفاً) (٣) .

(١) تاريخ ابن عساکر: ٣٧٤/٥ .

(٢) يُنظر: الفتوح: ١٨٠/٧ .

(٣) الأدب والالتزام: ٨٠ .

فخرج من بعدهما المجاهد سعيد بن إسماعيل الاسدي يريد للحاق برفيقيه الشهيدين فتقدم نحو ذلك العليج فالتقيا وتبارزا بضربتين ضربة الاسدي ضربة جندله قتيلاً^(١) ، فخرج من بعده عليج آخر يقال له قسطنطين الأصغر ، فقصده نحوه الاسدي دون هوادة أو تردد فهو رجل الحرب^(٢) وليث سلس القياد ، ذو صولة قاصمة يكرهها الأعداء فانشد^(٣):

يَا أَيُّهَا الدَّاعِي إِلَى الْجَلَادِ فِي حَوْمَةِ الْأَبْطَالِ وَالْأَنْجَادِ
أَتَاكَ لَيْثٌ سَلِسٌ الْقِيَادِ ذُو صَوْلَةٍ يَكْرَهُهَا الْأَعَادِي

فتطاعنا برمحيهما دون أن يصيب أحداً منهما ، عندها تضاربا بسيفيهما فلم يصنعا شيئاً فاعتنق كل واحد منهما صاحبه حتى سقطا عن فرسيهما إلى الأرض فشد عليه العليج بخنجر كان معه فوجأه في نحره فقتله شهيداً "رحمه الله تعالى"^(٤).

فكان لاستشهاده أثر في نفوس رفاقه واخوته ، وكان لصوت شعره أثراً إيجابياً لديهم ، فصوت (الشعر يرتفع في كل موقف ويسهم في كل معركة وهو يؤدي دوره في التعبير عن الحس القتالي ، والإيمان الواثق ، والعزيمة الرائدة ، وتظل في مظامينه الحية تستقر القيم التي حملها المقاتلون ، وبللوا عليها وهم يقدمون)^(٥) نحو الأعداء يقتلونهم

(١) يُنظر: الفتح: ١٨٠/٧ .

(٢) يُنظر: البطل في شعر الحماسة : ٢٥٤ .

(٣) الفتح : ١٨٠/٧

(٤) يُنظر: المصدر نفسه.

(٥) شعر الحرب في عصر الرسالة: ٧٩ .

كي ينالوا الشهادة في سبيله تعالى فهذا يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري يتأثر لاستشهاد صاحبه ويستجيب لصوت شعره الداعي إلى الجهاد والإستشهاد ، فيقدم نحو هذا العليج فيتمكن من قتله (١) .

ويتواصل القتال ويتبارز الفرسان فما زالوا كذلك يتقاتلون حتى دخل هذا المجاهد يعقوب بن عبد الكريم من ثقب حصن العدو ، وجعل يقاتل أهل الحصن وحده بشجاعة وثبات فما زال على هذه الحالة يقاتل حتى قطعت إحدى قدميه ، لكنه وثب قائماً على تلك الحالة يقاتلهم على فرد قدم ، فهو بطل شجاع (والبطل لن يخسر شيئاً غير "بنه الفاني" لكنه سيكسب الخلود المعنوي (الذكر الحسن) بفضل البطولة والفداء) (٢) في حياته الدنيا ، وينال الشهادة في حياته الآخرة ، فانشد شعراً بين فيه شجاعته وثباته ، وصبره على آلامه وجهاده الأعداء ، فقال (٣) :

أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ عَلَيَّ فَرْدَ قَدَمٍ وَالْحُرُّ لَا يَجْزَعُ مِنْ وَقَعِ الْأَلَمِ
والموتُ بَعْدَ الْإِلْفِ أَشْفَى لِلْقَرَمِ مَعَ الَّذِي أَرْجُوهُ مِنْ بَارِي النَّسَمِ

فلم يزل الأنصاري يقاتلهم وحده ويدفعهم عن ذلك النقب حتى دخل إليه أخوته فأعانوه ودفعوا الروم عن ذلك النقب ، فكبروا منتصرين وصاحوا بأصحاب مسلمة

(١) يُنظر: الفتح: ١٨٠/٧ .

(٢) فلسفة البطولة والفداء في التراث القديم والأخلاق الفاضلة: ١٤٢ ، (بحث) علي حسين الجابري - مجلة آفاق عربية -

ع ٨ - السنة السابعة ١٩٨٢ .

(٣) الفتح: ١٨٣/٧ .

فدخلوا، أما الأنصاري المجاهد فما زال ينزف الدم من رجله حتى مات شهيدا " رحمه الله تعالى " (١) .

إن بطولة هذا المجاهد الشهيد (كانت نابعة من إيمانه بالقدر وإيمانه بالخلود واعتقاده بالقضية الحية التي يطيب من أجلها الاستشهاد ، ويحمد فيها الخلود ، ويستطاب بذكرها الحديث الدائم ، وقد دفعه هذا الإيمان إلى ان يخوض الحرب بلا خوف ويصارع الطغيان بلا هوادة وينشد الحرية بلا تردد) (٢) .

إن هذا النصر ما تحقق لولا شجاعة هؤلاء الشهداء الذين عطروا بدمائهم الطاهرة هذا النصر فأصبحت هذه الدماء وقود سراج المجاهدين يضيء لهم الطريق كي يواصلوا الجهد نحو أعداء الإسلام الكافرين ، فسار مسلمة بجيشه حتى صاف الروم ، فصهلت الخيل وتداعت الفرسان (٣) .

وكانت معاني الحماسة والفخر تزهر فوق ألق الألفاظ وتلتهم في سطور أناشيدهم الجهادية ، وقد ازدهرت فيها الجرأة واندفع في سيل مضامينها حب الاستشهاد ، فالإشادة بالإقدام ، والاعتزاز بالبلاء الحسن ، والموت في سبيل الدفاع عن العقيدة كانت مكارم محمودة ، وغايات مقصودة تثير في قلوب المؤمنين نوازع التضحية (٤) ، فاخذ فرسان المسلمين يتقدمون نحو الأعداء واحدا بعد الآخر وهم يتناشدون أراجيز البطولة .

(١) يُنظر : الفتح : ١٨٢/٧ - ١٨٣ .

(٢) شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٧٧ .

(٣) يُنظر : الفتح : ١٨٤/٧ - ١٨٥ .

(٤) يُنظر : شعر الحرب حتى ق ١هـ / ١٤٥ .

فهذا محمد بن عبد العزيز يتقدم نحوهم وهو ينشد رجزه الجهادي الذي أكد فيه أصالة نسبه ، فهو ابن فارس شجاع وفي يمينه حسام صارم يقطع الرؤوس فقال^(١) :

أنا ابن ذي الفضل الكريم الماجد عبد العزيز القرم ذي الحامد
وفي يميني مُرهِف الحدائد يَحْتَرِمُ الرُّؤُوسَ مَعَ الْقَمَاحِدِ^(٢)

فحمل ساعة يقاتل الأعداء حتى رجع مجروحا ، عندها ترجل مسلمة بن عبد الملك عن من فرسه ونزل من فرسان المسلمين معه ، فتقدموا نحو الأعداء واشتد قتالهم حتى كتب الله تعالى لهم النصر لما رأى من صدقهم في جهاد الأعداء^(٣) .

ومع كل نصر يتحقق لهذا القائد وجنده المجاهدين ، نجدهم يزدادون عزيمة على مواصلة الجهاد ، (فهذه الطلائع قد عرفت أبعاد هذه الحالة الجديدة ، وتلمست مواطن المسؤولية التي يمكن أن تقدمها وهي تتحرك بقوة الإيمان وتتدفق بعقيدة التوحيد وتقاوم بصلافة الرسالة التي عرفت في رجالها الأوائل حقيقة الصوت الإلهي ، وجوهر الوجود الإنساني ، وعمق التوجه الذي يسمح عن وجوه البائسين كل إمارات البؤس المرير وأخايد الاستعباد القاتل)^(٤) .

(١) الفتح: ١٨٦/٧ .

(٢) الفمحة : الهنة الناشزة فوق القفا وهي بين الذؤابة والقفا ، منحدره عن الهامة إذا استلقى الرجل أصابت الأرض من

رأسه. يُنظر : اللسان : ٣٧٣٥/٥ (قمحد) .

(٣) يُنظر: الفتح: ١٨٦/٧ .

(٤) شعر الحرب حتى ق ١هـ/ ٢٥٩ .

فجمع جنده وسار بهم نحو الأعداء يريد المسيحية ، فدارت الحرب بينهما ، وحملت الروم على المسلمين ، وجعل الشمس البطريق يحمل على المسلمين حملة ويقتل منهم ويرجع إلى أصحابه حتى قتل نفرأ من المسلمين .

وحملت جماعة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المجاهدين شهداء في سبيل الله تعالى ، ثم تقدم افريطون في جمهرة من بطارقة الروم ، فجعل يقاتل المسلمين ، عندها تقدم نحوه مجاهد شجاع قد خبر أساليب القتال فهذا محمد بن عبد العزيز يتقدم على فرس له أصدى^(١) ، فهو (المغوار الذي لا يكل عن القتال ، ولا يرتد عندما تنلهم الخطوب)^(٢) فتقدم راجزاً وهو يقول^(٣) :

قَد عَلِمَ الرُّومَ وَمَنْ وَالَاهَا وَكُلُّ عِلْجٍ أَقْلَفَ سَاوَاهَا
إِنِّي إِذَا الْحَرْبُ خَبَّتْ لَهَا أَلْقَيْتُ أُخْرَاهَا عَلَى أَوْلَاهَا

فهو فارس شجاع قد أدرك الروم شجاعته في معارك سابقة خاضها معهم ، فاختلف مع افريطون بطعنتين ، قطعنه افريطون طعنة قتله بها شهيدا رحمه الله تعالى ، قاغتم المسلمون لاستشهاد وعزموا على النار له ، فكان لهم ذلك عندما قتلوا قائد الروم^(٤) .

(١) يُنظر : الفتوح: ١٨٦/٧-١٩١ .

(٢) حول البطولة في الأدب العربي بعد ظهور الإسلام : ١٥٠ . د. صلاح خالص - مجلة الآداب ، العدد الاول - السنة السابعة ،

١٩٥٩ .

(٣) الفتوح: ١٩١/٧ .

(٤) يُنظر: الفتوح: ١٩١ / ٧ - ١٩٢ .

وبعد كل معركة يتوج فيها نصر المجاهدين ، يكتب قائد جيش المسلمين رسالة إلى خليفة المسلمين ، معطرة بنقاء التضحية ، ومكتوبة بمداد الاستشهاد ، مستمدة عباراتها من روائع البطولة وهي تعيش في خضم كل ملحمة يسجلها الرجال الأشراف (١) .

وعقب كل انتصار تحققه هذه الجحافل المؤمنة ، ينطلق فرسان العقيدة إلى خوض غمار معارك جديدة ليكتب لهم التاريخ شرف الجهاد في سبيل الله يدفعهم إلى ذلك إيمانهم الصادق ، والعقيدة الراسخة (٢) . كما (اجتذب ألق الجهاد أيضا جميع الشعراء المسلمين الذين استبدت بهم روح الشوق إلى ساحات الشرف والقداء ، فاستجابوا لداعي الحق ، وكانوا في طليعة الجيوش الإسلامية الزاحفة) (٣) ، فشاركوا إخوانهم المجاهدين القتال وهم يتنقلون من مكان إلى آخر ، ومن نصر إلى نصر .

وفي كل منازلة يخوض غمارها جيش الإسلام ، كانت هناك بطولات أباهاها الشعراء المسلمون الذين حملوا راية الجهاد ، ونشر رسالة الإسلام ، فاستشهدوا في معارك الشرف ضد أعداء الإسلام وهم يزودون عن عقيدة الإسلام (٤) ، ففي ما مضى رأينا شجاعة مالك بن الربيع وتضحيته في سبيل الله تعالى ، وهذا شاعر مجاهد آخر انه المغيرة بن حبناء التميمي الذي شارك المجاهدين قتالهم ، (فكان صورة حية ونايضة وقد كانت حياته الحافلة بكل ضروب الشجاعة نموذجا من نماذج التضحية كما كانت نهايته مشرفة وخالدة يمكن ان تضع الخطوط الحقيقية التي كانت تفرض على حياته مسيرتها ، وتلزمه باتخاذ المسلك السليم الذي حدده لنفسه وترسم له طريق الحياة الصائب الذي دافع

(١) يُنظر : اتجاهات جديدة في شعر الحرب في ق ١٥٠هـ / ٢٩٠ .

(٢) يُنظر : الفروسية في أدب ق ١٥٠هـ ٦٦ .

(٣) الإسلام والشعر: ٩٧ د. سامي مكى العلي .

(٤) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١٥٠هـ / ٢٧٩ .

عنه في حياته وشعره (١)، حتى كان استشهاده بعد أن قاتل مع القائد المسلم الشجاع قتيبة بن مسلم الباهلي قتال الأبطال ، وشهد معاركه الحاسمة ، فكان أحد الفرسان فسي بلاد خراسان (٢).

إن اشترك المغيرة في الحرب وبشكل متقدم أعطاه فرصة الاستبسال وحقق به قدرة التجاوز ، فكان شهيدا مع بقية الشهداء الذين خلد التاريخ أسماءهم وكأنه أراد أن يظل خالداً حتى في طريقة استشهاده ، فعندما أصيب المغيرة واخذت جراحة غمسن إصبعه في دمه ، وخط على صدره بدمه الطاهر أنا المغيرة بن حبياء (٣) (فكان بطلا حتى في حالة الاستشهاد وإنسانا حتى في طريقة التضحية وخالدا حتى في حالات الموت، وبعد أن استقر في ميته الحرة سلم روحه إلى الخالق الكريم فكان بطلا خالدًا وتضحيتته نادرة ، ونموذجاً رائعاً ، فسجل لنفسه لقب الشاعر البطول والفارس الجريء الذي وسد جسده تراب الأرض في نفس (٤) ... ، فظل قبره في هذه المدينة شاهدا حيا من شواهد البطولة ، ورمزا من رموز الاقتدار العربي الذي ألى على نفسه أن يعيش حراً ويقاتل جريئاً ويستشهد مقاتلاً بطلا (٥) . (وحين تكون التضحية على هذه الشاكلة في أعنى درجاتها تنتفي صور الكذب والنفعية والازدواجية في سيرة البطول ، فتبقى إزاءها صور الصدق والثبات حية الملامح متجاوزة الزمان والمكان إلى جانب

(١) شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٧٩ .

(٢) يُنظر: الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي: ٣٠٥ و ٣٩٢ .

(٣) يُنظر: الأغاني ١١٢/١٣ .

(٤) نفس : هي مدينة كبيرة كثيرة الأهل تقع بين جيحون وسمرقند وهي على مدرج بخارى وبلخ .

يُنظر: معجم البلدان ٣٧٨/٨ .

(٥) شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٨٠ .

احتفاء الناس بها إكباراً واقتداءً (١) ، فكانت هذه التضحية وهذه البطولة صفة من صفاتهم الجهادية ، وهم يجوبون بلاد ما وراء النهر فاتحين ومحربين ، وتتجلى هذه الصفة أكثر وضوحاً عند وفود قادة المسلمين إلى ملوك الكفر والإلحاد ، فأرهبتهم وجعلتهم أذلة مستضعفين ، فعندما أصبح قتيبة بن مسلم الباهلي على مقربة من الصين ، كتب إليه ملكهم: **أَنْ ابْعَثْ إِلَيْنَا رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِ مَنْ مَعَكُمْ يَخْبِرُنَا عَنْكُمْ ، وَنَسْأَلُهُ عَنْ دِينِكُمْ ، فَانْتَخِبْ قَتَيْبَةَ مِنْ عَسْكَرِهِ عَدَدًا مِنَ الرِّجَالِ الْأَشْدَاءِ وَجْعَلْ عَلَيْهِمْ هَبِيرَةَ بِنَ الْمُشْمَرِجِ الْكَلَابِيِّ (٢)** ، فأراد قتيبة أَنْ يختبر كفاءة هذا المجاهد ، فقال له: كيف أنت صانع؟ فقال: **أُصْلِحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، قَدْ كُفِّتُ الْأَدَبَ ، وَقُلُّ مَا سُئِنْتُ أَقْلَهُ وَأَخَذَ بِهِ ، عِنْدَهَا قَالَ لَهُمْ قَتَيْبَةُ : سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَبِإِثْمِ التَّوْفِيقِ ، لَا تَضَعُوا الْعِمَائِمَ عَنْكُمْ حَتَّى تَقْدَمُوا الْبِلَادَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمْ عَلَيْهِ فَاعْلَمُوهُ أَنِّي قَدْ حَلَفْتُ إِلَّا أَنْصَرِفَ حَتَّى أَطَأَ بِلَادَهُمْ ، وَاخْتَدَ مَلُوكَهُمْ ، وَأَجْبِي خِرَاجَهُمْ (٣)** .

فسار الوفد وعليهم هبيرة بن المشمرج ، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدارت بينه وبينهم محاورات كثيرة ، ولقاءات متعددة ، بعدها قال لهم ملك الصين: **ما أحسن ما دبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه ، فقال له هبيرة: وكيف يكون قليل الأصحاب من أول خبله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً وغزاً ، وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا أجلاً إذا حضرت فأكرمنا القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه ، فقال له الملك: فما الذي يرضي صاحبك قال هبيرة : **إِنَّهُ قَدْ حَلَفَ إِلَّا أَنْصَرِفَ حَتَّى يَطَأَ أَرْضَكُمْ وَيَخْتَمَ مَلُوكَكُمْ وَيُعْطَى الْجَزِيَةَ (٤)** . وفي هذا اللقاء يتضح لنا صدق العقيدة التي آمن بها هؤلاء المجاهدون ، وسلامة المنهج**

(١) البطل في الشعر الحماسة: ٢٤٩ .

(٢) هو هبيرة بن مشمرج الكلابي أحد الأشراف الشجعان ، كان مع قتيبة حين غزا الصين ، وأوفده قتيبة إلى ملكها رسولا ونديرا ، فادى الرسالة واعجب به ملك الصين فعاد إلى قتيبة الذي سيره إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان فمات في طريقه ، فيؤا ان شاء الله تعالى شهيداً لأنه كما تقدم خرج مجاهداً في سبيله تعالى ينشر رسالته إلى ملوك العالم وقد مات في هذا السبيل . ينظر: تاريخ لطري: ٨ / ١٠٠ - ١٠١ .

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٨ / ١٠٠ .

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ٨ / ١٠١ .

الذي ساروا عليه ، وقاتلوا الأعداء من أجله ، فلم يقبلوا المساومة في دينهم ، فأما أن يدخل الأعداء إلى الإسلام طائعين أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا كان القتل مصيرهم .

إن ما أبداه هبيرة من شجاعة أمام ملك الصين جعلت منه (رمزاً من رموز العقيدة والجرأة ، وبقيت ألفاظه الرائعة وتصرفه الشجاع صوتاً من أصوات الحق الإنساني الذي أراد لأبناء بلاد ما وراء النهر الحياة الكريمة ، والسعادة التي حملتها قوافل التحرير وهي تقطع الأرض الصعبة ، وتجتاز الجبال الوعرة ، وتفتحم الحصون المنيعة ، ولكن قدرة الرجال الذين آمنوا بالحق ، وترسخت أصول الإيمان في قلوبهم كانوا أقوى من كل العوائق ، وأشد من كل الأعداء الكبيرة التي كانت تتوزع من الخوف ، وتتبعثر من السيول الهادرة ، والسيوف المصلته ، والرماح المشرعة وكان هبيرة موضع اعتزاز الشعراء الذين وجدوا فيه صورتهم الرائدة ، وحققوا في ذاته قدرة الإنسان المقاتل وتلمسوا في سلوكه الفذ براعة الرجل المقتدر) (١) ، فهذا سواده بن عبد الله السلولي يشيد بشجاعة الوفد الذي أرسله قتيبة ، يقودهم هبيرة بن المشمرج الذي لم يرض بغسير الختم على ملوكهم وأن يُعطى الجزية ، فادى رسالة قائده بشجاعة ، ورجع منصوراً تتجه إليه أنظار المجاهدين ، فقال (٢) :

لَا عَيْبَ فِي الْوَفْدِ الَّذِينَ بَعَثْتَهُمْ لِلصِّينِ إِنْ سَلَكُوا طَوِيلَ الْمَنْهَجِ
كَسَرُوا الْجُفُونَ عَلَى الْقَدَى خَوْفَ الرَّءِ دَى حَاشَا الْكَرِيمِ هَبِيرَةَ بْنِ مُشْمَرَجِ
لَمْ يَرْضَ غَيْرَ الْخَتْمِ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَرَهَائِنِ دُفِعَتْ بِمُحْمَلِ سَرَجِ
أَدَى رِسَالَتِكَ الَّتِي اسْتَرْعَيْتَهُ وَأَتَاكَ مِنْ حَنْثِ الْيَمِينِ بِمُخْرَجِ

وعندما توفاه الله تعالى ، كانت لوفاته (رنة حزن ، ومبعث أسى في نفوس الرجال الذين وجدوا في فقدته خسارة ، وعرفوا في بعده موقعا لا يسد) (٣) ، فهذا سواده يعود

(١) شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٥٣ .

(٢) تاريخ الطبري: ١٠١/٨ .

(٣) شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٥٤ .

مرة أخرى لكي يخاد شجاعته ، فقال (١) :

لِللَّهِ قَبْرُ هَبِيرَةَ بْنِ مُشْمَرَجٍ
كَانَ الرَّبِيعُ إِذَا السُّنُونُ تَتَابَعَتْ
بُكَتِ الْجِيَادُ الصَّافِنَاتُ لِفَقْدِهِ
وَاللِّيثُ عِنْدَ تَكْعَكَعِ الْأَبْطَالِ
وَبُكَاهُ كُلِّ مُثْقَفٍ عَسَّالٍ

فهو يبكي فيه حسنه وفصاحته وإنسانيته وشجاعته التي أدركتها وعرفتتها خيوله التي كان يمتطي صهوتها مجاهداً في سبيل الله تعالى ، وبكت عليه الرماح التي كان يطاعن بها الأعداء ، فهي تسكب الدموع حسرة لفراقه ، كيف لا وهو الأسد المغوار عندما يجبن ويحجب بالأبطال (٢) .

بأمثال هؤلاء الرجال واصلت جيوش التحرير سيرها نحو أعداء الإسلام الذين رفضوا الامتثال لأوامره ، وفي كل معركة يخوض غمارها هذا الجيش لنا فيها نماذج رائعة من شهداء المسلمين الأبرار الذين قاتلوا بشجاعة وثبات حتى الشهادة ، وأصبحوا موضع إعجاب واقتداء لإخوانهم المجاهدين من خلال رثاء الشعراء لهؤلاء الشهداء فرثله الشداء ليس (غرضاً مقصوداً لذاته بقدر ما كان إظهاراً لمشاعر الود والوفاء ، والاخوة الصادقة ، ودعوة للاقتداء بالشهداء والاهتداء بتضحياتهم) (٣) ، فيذا الشمردل السيربوعي يظهر صدق مشاعر الود والوفاء تجاه أخوته الثلاثة الذين خرجوا يؤدون مهمتهم في صفوف جيش التحرير (٤) ، فقد استشهد وائل وهو يقاتل الفرس ، وقدامة في بلاد فارس ، وحكم في سجستان (٥) ، فأخوه وائل كان فارساً شجاعاً إلى درجة أن الأرض التي دفن فيها قد فرحت بضمها جسده الطاهر ، لأنها تريد أن تزين به مسن دفن فيها ، فييو

(١) تاريخ الضري: ١٠١/٨ .

(٢) ينظر: الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي : ٢٢٥ .

(٣) نظرات في شعر صدر الإسلام: ٦٠-٦١ .

(٤) بظر: شعر الحرب حتى ق ٢٩٣هـ/١٣٠٠ .

(٥) ينظر: الأعاني: ٣٧٨-٣٨١ ، وشعر الحرب حتى ق ٢٩٣هـ/١٣٠٠ .

بطل شجاع كان يتقى به الثغر المخوف فقال ^(١) :
 وَحَلَّتْ بِهِ أَتْقَاهَا الْأَرْضُ وَأَنْتَبَهَى
 لَقَدْ ضَمَمْتَ جِلْدَ الْقَوِيِّ كَانَ يَتَّقِي
 بِمَثْوَاهِ مِنْهَا وَهُوَ عَفٌّ مَا كَلَّمَهُ
 بِهِ جَانِبُ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ زَلَّزَلَهُ

بوجوده يحمي الحمى ، ويصان العرض ^(٢) ، فهو رجل شجاع قد خبر أساليب الحرب ، فهو الذي يذاد به ، خاصة عندما يحمل سيفه المجرد ، عندها أصبح أسداً شجاعاً ، وقد كان هذا الفارس حامي الثمردل ، ومدافعاً عنه الأعداء أما الآن فقد غلبه من المقدار من لا يقاقله ، فقال الثمردل ^(٣) :

وَتَقَنَّ بِهِ عِنْدَ الْحَفِيفِ ظِلَّةَ فَارَعَوَى
 إِلَى ذَائِدٍ فِي الْحَرْبِ لَمْ يَكُ خَاطِئاً
 وَمَا كُنْتُ أَلْفِي لَأَمْرِي عِنْدَ مَوْطِنِ
 وَكُنْتُ بِهِ أَغْشَى الْقِتَالِ فَعَزَّنِي
 إِلَى صَوْتِهِ جَارَاتُهُ وَحَلَاتِلُهُ
 إِذَا عَاذَ بِالسَّيْفِ الْجُرْدِ حَامِلُهُ
 أَخَا بِي أَخِي لَوْ كَانَ حَيًّا أَبَدِلُهُ
 عَلَيْهِ مِنَ الْمِقْدَارِ مَنْ لَا أُقَاتِلُهُ

ثم جاءه نبأ استشهاد الحكم ، فاحتسبه شهيداً في سبيل الله تعالى ، فمضى لسبيله لم يعط ضيماً ولم ترهب غوائله الأداني ، وقد كان رجل الحروب المتواصلة ، فهو قتيل ليس مثل قاتله الذي كان يرتعد خوفاً من خوض الحرب ، فهابه الأعداء وخشي لقاءه الفرسان ، فهو حامي الثغور لا يخشى عليه ، فقال الثمردل موثقاً ذلك ^(٤) :

مَضَى لِسَبِيلِهِ لَمْ يُعْطِ ضَيْمًا
 قَتَلْنَا عَنْهُ قَاتِلَهُ وَكُنَّا
 قَتِيلًا لَيْسَ مِثْلَ أَخِي إِذَا مَا
 وَكَانَ يَهَابُكَ الْأَعْدَاءُ فِينَا
 وَلَمْ تَرْهَبْ غَوَائِلَهُ الْأَدَانِي
 نَصُولُ بِهِ لِدَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ
 بَدَا الْخَفَرَاتُ مِنْ هَوْلِ الْجَنَانِ
 وَلَا أَخْشَى وَرَاءَكَ مَنْ رَمَانِي

(١) شعراء أمويون: ق ٥٤٥/٢ . دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل .

(٢) بنظر: المصدر نفسه: ق ٥٠٩/٢ .

(٣) المصدر نفسه: ق ٥٤٤/٢ .

(٤) المصدر نفسه .

فيو لم يكن ضعيفاً ولا مسترخياً ، وهذه الشجاعة وهذه البطولة عندما ترحل فإن لها أثراً على من كان يحميه ، لذلك أبدى الأعداء شجاعتهم على أخيه واستضعفوا وحدته ، فقال الشمريل وقد استنكر شجاعة أخيه (١):

فَلَا تَبْعُدُ فَلَمْ تُكْ مَرْتَعْنَا وَلَا خَطَلَ الْيَدَيْنِ وَلَا اللِّسَانَ
فَقَدْ أَبَدُوا ضَعْفَانَهُمْ وَشَدُوا إِلَيَّ الطَّرْفَ وَاعْتَمَزُوا لِيَابِي
فَدَاكَ أَحْ نَبَا عَنْهُ غَنَاهُ وَمَوْلَى لَا تَصُولُ لَهُ يَدَانِ

وجدير بالذكر أن البطولة العربية في عصر ما قبل الإسلام لم تكن تنحصر في نطاق الحرب ، بل كانت تتجاوزها إلى آفاق أخرى ، فبينما كان أخيل في الإلياذة محارباً جباراً يبطش بالأعداء ويشتقي بهم من حقه وغضبه ، وتراه متكبراً مزهواً بنفسه خشناً في عمله وقوله ، جافياً في طباعه نجد العرب قبل الإسلام يفهمون البطولة على نحو آخر ، ويسعون إلى أن يجمعوا في شخوص الأبطال الشجاعة والعفة وشرف الأصل والسماحة والحلم والعقل والأدب وغير ذلك من الفضائل التي كانوا يقدسونها (٢) ، فمع ما أوتي أخواه قدامه ووائل من الشجاعة التي تتيح ليما تحقيق مآربهما كانا يعملان جاهدين على قهر غرائز التوقد من الغيظ والتسرع ، بل لكائنهما يجدان لذتهما في قهرها (٣) ، لذلك تتحاجز أيدي جهل القوم عنهما ، لما اتصفا به من حلم ، فقال الشمريل مجسداً ذلك (٤):

وَكَانَا إِذَا أَيْدِي الْغَضَابِ تَحَطَّمَتْ لَوْ أَعْرَصَ صَدْرٍ أَوْ ضَعَّائِنِ مِنْ تَبَلٍ (٥)
تَحَاجَزَ أَيْدِي جَهْلِ الْقَوْمِ عَنْهُمَا إِذَا أَتَعَبَ الْحِلْمُ التَّرْعُ بِالْجَهْلِ (٦)

ونجد الشمريل أيضاً قد استجمع في شخوص أخوته الثلاثة شرف الأصل والسماحة والعقل ، وشجاعتهم وقنرتهم على رد خيل القوم إذا ما ولت هاربة ، فقال (٧):

(١) شعراء أمويون: ق ٥٥٤/٢ .

(٢) ينظر: الفخر الملمحي: ٦٦ ، أحمد أبو حاققة . نقلا عن البطل في شعر الحماسة: ٢٥٠ .

(٣) ينظر: البطولة في الشعر العربي: ١٤-١٥ .

(٤) شعراء أمويون: ق ٥٤٨/٢ .

(٥) الوغر: التوقد من الغيظ ، والتبل: العداوة . ينظر: اللسان: ٤٨٧٨/٦ (وغيره) ، و ٤١٩/١ (تبل) .

(٦) الترع: التسرع . ينظر: المصدر نفسه : ٤٢٨/١ (ترع) .

(٧) شعراء أمويون: ق ٥٥١-٥٥٢ .

لَيْسُوا كَتَعْلَبَةَ الْمَغْبُوطِ جَارِهِمْ كَأَنَّهُ فِي ذَرَى نَهْلَانَ أَوْ حَيْمٍ (١)
يَشْبَهُونَ قَرِيشًا مَنْ تَكَلَّمَهُمْ وَطُولَ أَنْضِيَةِ الْأَعْنَاقِ وَالْأَمَمِ
جُزُوا النَّوَاصِي مِنْ عَجَلٍ وَقَدْ وَطِنُوا بِالْخَيْلِ رَهْطَ أَبِي الصَّهْبَاءِ وَالْحَطَمِ
وَيَوْمَ أَفْلَتْنَهُنَّ الْحَوْفِرَانَ وَقَدْ شَالَتْ عَلَيْهِ أَكْفُ الْقَوْمِ بِالْجَذَمِ

فنحن نرى الدور المهم الذي يقوم به الشعر في توثيق بطولات الشهداء من خلال الملاحم التي خاضوها وما كان فيها من إقدام وبسالة ، وصور رائعة للتضحية والفداء (٢) ، فالفرزدق يبين لنا من خلال شعره الذي رثى به ابن أخيه محمد (٣) ، شجاعته فهو فارس مقدام يمتلك سيفاً حاداً ، وإذا ما أدخل سيفه في غمده تمزق من شدة حدته ، لذلك فإن ضربته قاطعة لا تخطئ هدفها ، وبهذا الحسام القاطع الذي ملكته قبضة يده اليمنى ، ملك به حياة الهالكين فإن شاء قضى عليهم وإن شاء خلى عنهم (فهو بذلك يعطي لاحتكامه إلى سيف وإيغاله في الضرب الموجه كل المبررات التي تناء عن اللوم والمؤاخذه) (٤) ، فقال الفرزدق (٥) :

عَلَى مِثْلِ نَضْلِ السِّيفِ مَزَّقَ غَمْدَهُ مَضَارِبٌ مِنْهُ لَا يُفْلِحُ حُسَامُهَا
وَكَانَتْ حَيَاةَ الْهَالِكِينَ يَمِينُهُ وَوَلِيَّتُ الْأَبْطَالِ فِيهَا سَمَامُهَا

إنه فتى شجاع ، والشباب هم الأكثر اندفاعاً إلى الموت بشجاعة (٦) ، فإذا ما رآته الأرض تفرق ترابها خوفاً منه ، فقال (٧) :

(١) نهلان وحيم : حيلان ، يُنظر : معجم البلدان : ١٨/٣ و ٢٦٦/٣ .

(٢) يُنظر : الأدب في عصر نبوة ولرأشدين : ٣٠٧ .

(٣) هو محمد بن الاحطل ، ولاحطل لقب واسمه ميم بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال ... ، خرج محامداً مع جيش سليمان بن عبد الملك بن مروان التوجه إلى غزو الروم ، وقد عسكر هذا الجيش في مدينة أربحا التي مات فيها هذا المجاهد . فهو ان شاء الله شهيد لانه مات في سببه تعالى . يُنظر : الأعالي : ٢١/٢٣٨ ، والكامل في التاريخ : ٢٦٦-٢٧٠ و الفرزدق : ١١٤ و ١٣٨ و ٤٢٣ . د . شاعر الصحاح .

(٤) البطل في شعر الحماسة : ٢٥٥ .

(٥) شرح ديوان الفرزدق : ٧٥٢/٢ . جمع وتحقيق : عبد الله الصاوي .

(٦) يُنظر : الأشباه والظائر : ١١٢/١ .

(٧) شرح ديوان الفرزدق : ٧٥٢/٢ .

وَكَانَ إِذَا أَرْضَ رَأَتْهُ تَزِيلَتْ لِرُؤْيَتِهِ صَحْرَاؤُهَا وَإِكْمَامُهَا

لقد كان هذا الفتى يعطي السيف حقه في الانتقام من الأعداء ، كما كان يتعب جواده من كثرة امتطائه صهوته ، فقال (١):

فَتَى كَانَ لَا يَبْلِي الْإِزَارَ وَسَيْفَهُ بِهِ لِلْمَوَالِي فِي الثَّرَابِ انتِقَامُهَا
وَقَدْ كَانَ مَتَعَابَ الْمُطِيِّ عَلَى الرَّجَا وَبِالسَّيْفِ زَادَ الْمُرْمِلِينَ إِعْتَامُهَا

وهو البطل الذي يعدونه ذخيرة لوقت الخطر رأهلا للاعتماد عليه في القتال فقال (٢):

وَمَا مِنْ فَتَى كُنَّا نُبِيعُ مُحَمَّدًا بِهِ حِينَ تَعَتَّرُ الْأُمُورَ عِظَامُهَا

وفي كل معركة يخوضها جيش التحرير كانت جحافل الشعراء في مقدمتها يسجلون لهذا الدين أروع صفحاته ، ولهذا الجهاد اصع دلالاته (٣) ، فشاركوا في هذا الجهاد ووضعوا أنفسهم في إطار الدعوة التي حملت الخير لكل البشرية التي أنقذتها أصفاد العبودية وأحاطت بها أستار الظلم وأحدقت بها نفوس الطغاة وقد أخذت هذه الجحافل على نفسها أن تكون وفيّة في عطائيا ، مخلصّة في جهادها الأعداء (٤) ، (يحدوهم الهدف النبيل الذي خرجوا من أجله ، وهو النصر لإعلاء كلمة الله أو الشهادة ودخول الجنة) (٥) ، فهذا ثابت قطنه فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية أبلى بلاء حسنا في الجهاد وهو يشارك قوافل المجاهدين فوثق لنا شجاعته وبطولته هذه من خلال شعره ، فالتعز هو خير رفيق للمجاهدين في معاركهم البطولية (٦) ، فكان لهذا المجاهد أثر مهم وحاسم في إنقاذ المسلمين الذين حاصروهم الترك في قصر الباهلي فقد (ضاقت بالمحاصرين السبل وقل بها المحامون ، وتأججت عواطف الاخوة واستثيرت حماية الإحسان بوحدة المصير في أرض عربية وديار نائية فكان لصوته صوت آخر ، ولدفاعه لون يختلف ولتضحيتته ومقاومته طبيعة متميزة وكانت أبياته إحياء بهذا الحس وإشارة إلى صدق التعبير الوجداني

(١) شرح ديوان الفرزدق : ٧٥٢/٢ - ٧٥٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٥٣ / ٢ .

(٣) الشعر والفتوح الإسلامية ١١ ، د. نوري حمودي التيسي

(٤) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ / ٢٨٠ .

(٥) الإسلام والشعر: ٩٧ د. سامي مكّي العار .

(٦) يُنظر: لمحات من الطويلة لعربية في شعر الحرب: ٢٥ .

الحي وهو ينطلق على لسان مقاتل يخوض المعركة ويبلى فيها البلاء الحسن ويؤدي واجبه بالشكل المطلوب وقد تكسر رمحه واستعاض عنه بسيفه فيكر عليهم مستمداً العزم (١) من الله تعالى الذي لا شريك له وقوته في قتال الأعداء ، فقال (٢):

فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسَ مِنْ تَمِيمٍ	غَدَاةَ الرَّوْعِ فِي ضَنْكِ الْمَقَامِ
فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسًا اِكْتَفُوِي	عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي رَهَجِ الْقَتَامِ
بِقَصْرِ الْبَاهِلِيِّ وَقَدْ رَأَوِي	أَحَامِي حِينَ ظَنَّ بِي الْحَامِي
بِسَيْفِي بَعْدَ حَطْمِ الرَّمْحِ قَدَمَا	أَذُوْدُهُمْ بِذِي شَطْبِ حَسَامِ
أَكْرُ عَلَيْهِمُ الْيَحُومَ كَرًّا	كَكَّرَ الشَّرْبَ آيَةَ الْمَادَامِ
أَكْرُبُهُ لَدَى الْعَمْرَاتِ حَتَّى	تَجَلَّتْ لَا يَضِيقُ بِهِ مَقَامِي
فَلَوْلَا اللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ	وَضُرِّي قَوْنَسَ الْمَلِكِ الْهَمَامِ

بهذه الشجاعة واصل هذا الفارس جهاده مع جيوش التحرير فدارت معركة عنيفة لهذا الفارس مع غيره من الفرسان ضد الترك أظهر فيها هذا المجاهد شجاعته وبطولته (فلم يجد لنفسه حياة بكل مدلولات كلمة الحياة كالإقدام ودخول المعارك التي يثبت في حومتها وجوده) (٣) فارساً شجاعاً فقال (٤):

أَمْضِي وَظِلَّ الْمَوْتِ نَحْتَهُ ذُؤَابَتِي	وَيُظِنُّ صَحْبِي أَنَّنِي لَا أَسْلَمُ
فَسَلِمْتُ وَالسَّيْفُ الْحَسَامُ وَصَعْدَةُ	سَمَاءٍ يُجْرِي بَيْنَ أَكْعُبِهَا الدَّمُ

فخاض أشرس معركة له ضد الترك ، فدارت رحى الحرب بينه وبينهم حتى استشهد فيها ثابتاً وعدد من الفرسان الذين كانوا معه (رحمهم الله تعالى) (٥). (إن محاولة اقتحام الأرض الجديدة كانت تتطلب من القائد العربي خبرة متميزة وقدرة لها خصائصها

(١) شعر الحرب حتى ف ١٥١ / ٢٠٨ .

(٢) شعره : ٥٥-٥٦ ، جمع وتحقيق ماجد احمد السامرائي .

(٣) الظل في شعر الحماسة: ٢٥٧ .

(٤) شعره: ٦٣ .

(٥) يُنظر: تاريخ الطبري: ١٩٩/٨ .

حتى تكون قادرة على تسجيل الانتصار في ظروف عسكرية صعبة ، وعوامل جغرافية وتضاريس أرضية وواقع بشري له ظروفه وهي عوامل كانت لا تستجيب إلا للقائد المتمكن ولا تُذلل إلا للمؤمن المقاتل ، فعوامل الغربة لها وجوها وأسباب الهيبة في هذه المجالات لها تأثيراتها ، إنَّ هذه الأسباب كانت سبباً مباشراً من أسباب اختيار القائد الفذ الذي توفرت فيه عوامل القيادة وتمكنت في نفسه أسباب العزيمة ، وترسخت في قدرته صورة الإيمان بالنصر وهو يندفع بعقيدة صادقة ويقاوم ببقاء عالية (^١) ، ولا ينبغي هذا القائد من جهاده إلا للفوز بإحدى الحسنيين : (إما مرتبة الشهادة التي يفوز بها بالجنة ورضوان مقيم وإما النصر للعقيدة التي يكافح لأجلها وخذلان الكفر والكافرين وهو لذلك حريص على الفوز مخلص في القتال والجهاد والنضال والطعان مهما كانت منزلته فيه أو حصيلته منه) (^٢) .

فالجراح بن عبد الله الحكمي قائد شجاع من قادة هذا العصر استدعاه يزيد بن عبد الملك بن مروان فعقد وضم إليه جيشاً كبيراً وأمره بالمسير إلى بلاد أرمينية ، فتمكن من دخولها فأرهب هذا النصر الخزر الذين فروا هاربين من مدينتهم فشنج هذا النصر هذا القائد على مواصلة حملته الجهادية إلى بلاد الكفر ولم ينس هذا القائد أنَّ أعداءه يتربصون به ويراقبون تحركاته فعمد هذا القائد الذي خبر الحرب وعرف كيف يعالج شؤونها (^٣) ، إلى خدعة يوهم بها أعداءه كي يباغتهم بهجوم يكتسحهم به ويقف جمعهم ، إذ أمر هذا القائد مناديه أن ينادي في العسكر : أنَّ الأمير مقيم ههنا ثلاثة أيام فلما وصل الخبر إلى أَسْماع أعدائه أقاموا في مواضعهم ، عندها تحرك هذا القائد بجيشه وباغت الأعداء فدنا الجيشان بعضهما من بعض والجراح يومئذ على بغلة دهماء فقام خطيباً في جنده فقال : أيها الناس انه ليس لكم من فئة تلجأون إليها بعد الله غيري وقد علمتم من قتل منكم فإلى الجنة ومن ظفر فالغيمة والذكر الحسن (^٤) . إنَّ هذه المعاني تملأ قلب المقاتلين وهم

(١) انجاعات جديدة في شعر الحرب في ق ١٥ / ٢٨٦ .

(٢) كيف السبيل إلى الله الجهاد والاستشهاد في الإسلام: ١٦ / ٦٤ - ٦٥ .

(٣) يُنظر: شعر الحرب: ١ / ٩١ - د. علي الخدي .

(٤) يُنظر: الفتح: ٨ / ٢٩ - ٣٠ .

يخوضون يوماً مشهوداً ويكتبون شرفاً قومياً فذاً ، ويحققون مجداً دينياً كريماً (١) ، فاشتبك الفريقان وتنازل الفرسان حتى أعز الله تعالى جنده بنصر مبین (٢) .

لقد جسد هذا النصر وغيره من الانتصارات التي تحققت لجيوش التحرير حرص هؤلاء المجاهدين على القتال دفاعاً عن العقيدة كما جسد صبرهم على الجلاء وعدم سأمهم من استمرار الحروب (٣) ، مهما اختلفت موازينها وازداد فيها عدد أعداء الإسلام لذلك عزم هذا القائد على مواصلة الجهاد ضد أعداء الإسلام الذين تجمعوا بأكثر عدد استطاعوا جمعه وخرجوا يثأرون لهزيمتهم الأولى ، فأتجه للقائهم هذا القائد وهو في قلة عدد من جنوده المجاهدين ولكنهم قوة مؤمنة صابرة تعلم أن قتالها لا خسارة فيه فمن قُتل منهم فقد فاز بالشهادة ومثواه الجنة وإن انتصروا قد غلبوا أعداءهم وكان النصر حليفهم فأمر الجراح مناديه أن ينادى المجاهدين إلى الإقدام (٤) . (وفي هذا الموقف تتضح حقائق الحرب التي يحمل المسلمون صدق الدفاع ، وعدالة الفكرة ، وسلامة التوجه ، ويحمل المشركون أوزار الضياع وحب الدنيا ، وضعف الإيمان) (٥) ، فأراد الجراح أن يشد من عزم جنده المجاهدين ويرغبهم في القتال والاستشهاد في سبيل الله تعالى كما أراد أن يحسم موقفاً طال فيه التصبر والتلذذ لان خصمه كان يتوعد ويتنهد فلما نفذ صبره جاء إليه ليرده عما عزم عليه من الشر والبغي (٦) ، فتقدم نحو الأعداء وهو يرتجز شعراً بين فيه شجاعته وقوة فتكه بالأعداء بصارمه البتار فيؤ قائد مؤمن بالله تعالى ، فقال (٧) :

لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَحْسَنِي وَدِينِي وَصَارِمٌ ذُو صَنْعَةٍ مَسْنُونٍ

فحمل على جميع الخزر فلم يزل يقاتلهم حتى قتل منهم مقتلة عظيمة (٨) ، ولا عجب لما أبداه هذا القائد (فهو بطل يمتلك القدر الأوفى من الثقة بالنفس في ساحة القتال ،

(١) يُنظر: شعر الحرب في عصر الرسالة: ٨٢ .

(٢) يُنظر: الفتوح: ٣١/٨ .

(٣) يُنظر: نحات من البطولة العربية في شعر الحرب: ٣٤ .

(٤) يُنظر: الفتوح: ٣٩/٨ - ٤٠ .

(٥) شعر الحرب حتى ق ١هـ / ١٤٣ .

(٦) يُنظر: البطل في شعر الحماسة: ٢٦١ .

(٧) الفتوح: ٤١/٨ .

(٨) يُنظر: المصدر نفسه .

ولذلك فهو يواجه العدو بوجهه ويستهن بالتخاذل (١) ، فما زال يقابل بهذه الشجاعة حتى شاء المولى ﷺ أَنْ يُقْتَلَ هذا القائد وسن معه من الجنود المجاهدين شهداء في سبيله تعالى "رحمهم الله تعالى" (٢) . فبلغ نبأ استشهادهم إلى هشام بن عبد الملك فبكى بكاء شديداً حتى علا نحيبه وبلّ لحيته بدموعه ، وبكى المسلمون في كل بلد حزناً عليهم (٣) ، وهنا يأتي دور الشعراء المسلمين في تأدية واجبهم تجاه قادة المسلمين الذين ضحوا بأنفسهم في سبيله تعالى وهم يقاثلون الأعداء على أرض بعيدة غريبة ، فالفرزدق وهو أحد هؤلاء الشعراء يؤدي دوره ويظهر وده وإخلاصه تجاه هذا القائد ورفاقه المجاهدون وخاصة أن الفرزدق قد عرف أيام ولاية هذا القائد للبصرة فعرفه عادلاً حسان السيرة أشاد بشجاعته وشجاعة جنده البواسل الأبطال (٤) ، أشاد بحمايته لجبرته ، فهو الفارس الحامي إذا ما التقى الفرسان على الخيول ، وخلف لوائه يقاتل المجاهدون ، فطالما استجاب هذا القائد لدعوى النساء الحرائر واطلقهن من أسر الأعداء ، وكان هذا القائد إذا ما عزم على خوض حياض المنايا سعى إليه كل جرم فهو ملاذ الخائفين وحامي المسلمين ، فقال الفرزدق موثقاً هذه البطولة (٥) :

حيا الناس والقرم الذي للمراجم
ومن يضرب الأبطال فوق الجماجم
مجيئاً على الأيام ذات الجرائم
أستتها بين الذكور الصلادم
وقد رفعت عنه ذبول المخادم
حياض المنايا عنه كل جرم
له جبل متاع من الخوف سالم

إلى من يلوي بعده الهام إذ نسوى
ومات مع الجراح من يحشد القرى
فما ترك الجراح إذ مات بعده
إذا التقى الأقران والحيل والتقت
ومن بعده تدعو النساء إذا سعت
وكان إلى الجراح يسعى إذا رأت
وقد علم الساعي إليه ليعطفن

(١) البطل في شعر الحماسة: ٢٥٦ .

(٢) يُنظر: الفتح: ٤١/٧ .

(٣) يُنظر: المصدر نفسه .

(٤) يُنظر: الفرزدق: ٤٢٧ د. شاعر الفحام .

(٥) شرح ديوان الفرزدق: ٧٨٩ / ٢ - ٧٩٠ .

ويطلب الشاعر من النساء اللواتي طالما استجاب لندائهن ودافع عن دمار محارمين

أن يبكين على هذا القائد الشجاع فقال (١):

لَيْتَكَ النِّسَاءُ السَّاعِيَاتُ إِذَا دَعَتْ
لَهَا حَامِيًا يَوْمًا ذِمَّارَ الْمُحَارِمِ

وقد تعجب الفرزدق من أرض قد أجتت يمنين هذا القائد التي طالما هزم بها الأعداء

المراجع ، فقال: (٢)

فَلَلِهَ أَرْضٌ قَدْ أَجَّتْ يَمِينَهُ
وَكَانَ بِهَا يَنْكِي الْعَدُوَّ الْمُرَاجِمِ

لقد وقعت قصيدة الرثاء موقفاً أدبياً شامخاً وهي تؤدي دورها في تصوير البطولة

وتجميد الإنسان وتحبيب الموت وتزيين الدفاع عن الأرض والاستبسال من أجل المجد

الإسلامي دفاعاً عن حرمان المسلمين وذباً عن الحمى المستباح ، وقد استطاع الشعراء

أن يتركوا في مضامين قصائدهم من معاني الخلود ما جعلها مضرب المثل ، ومن ألفاظ

الجرأة والثبات ما أكدها في ضمير كل المسلمين ، لأن معاني التمجيد لم تكن مقتصرة

على البطل الشهيد وألفاظ الخلود لم تكن وقفاً على القائد الصريح وإنما هي محاولة لدفع

المسلمين إلى الاقتداء ، ومحاولة إلى تأكيد روح انتضحية التي تمتلئ في القائد الشهيد (٣) ،

لذلك عزم خليفة المسلمين هشام بن عبد الملك على إكمال مسيرة الجهاد وإرسال قادة

الجهاد إلى أعداء الإسلام فأرسل إلى الجنيد بن عبد الرحمن (٤) وأمره على جيش

المسلمين وأن يسير بهم إلى أرض خراسان . فزار دياراً من ديارهم ومن معه من المجاهدين

فلقى الأعداء في طريقه وانتصر عليهم (٥) . فكان هذا النصر دافعاً لهذا القائد على إكمال

المسيرة فتوجه إلى سمرقند لإنقاذ أحد قادة المسلمين الذي حاصره الأعداء فقال له أحد

الجنود: لا تعجل فإن مدينة سمرقند حصينة منيعة ، فقال له الجنيد والله إنَّ معي من بني

(١) شرح ديوان الفرزدق : ٧٩٠/٢ .

(٢) الفصير نفسه : ٨٠٦/٢ .

(٣) يُنظر: الفتوح / ٨ / ٩٩ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث بن حارثة بن سان . . . من أهل دمشق ، كان قائداً شجاعاً قساده

الكثير من المعارك ضد أعداء الإسلام وهزم الترك وقاد حملة على طخارستان ، فما زال هكذا حتى وافته المنية شهيداً في

مدينة مرو التي فتحها ودخل نور الإسلام إليها . يُنظر: تاريخ بن سائبر : ٤١٥/٣ - ٤١٧ ، ودائرة المعارف

الإسلامية : ١٥٠٧ .

(٥) يُنظر: الفتوح . ٩ / ٨ .

عمي خمسمائة رجل ، كل رجل منهم يُعد بألف من الترك وواثنه لو لم يكن معي غيرهم للقيت بهم ملك الترك وجميع من معه من الكفار (١) ، فهذا القائد يعتد (بنفسه وقوته ولم يكن مبعث ذلك الاعتداد لهوى في النفس يدفع بصاحبه إلى انتفاخ للذات يدل به على الناس مخشي الجانب مرهوب الاسم) (٢) ، وإنما هو إيمان هذا القائد بالله تعالى الذي سيؤيده بنصره المبين لأنه إنما يجاهد ويقاثل الأعداء لأجل إعلاء كلمته العليا ومن ينصر الله ينصره فتقدم هذا القائد نحو الأعداء وقد ارتجز بيتاً ، فقال (٣) :

أَلَيْسَ أَحَقُّ النَّاسِ أَنْ يَشْهَدَ الْوَعْيُ وَأَنْ يَقْتَلَ الْأَبْطَالُ ضَخْمًا عَلَيَّ ضَخْمٍ

فقلب البطل الشجاع لا يجتمع فيه عرامة التحدي والخوف من الموت فهو غير هيأب مما يُفضي إليه إندفاعه وإقدامه نحو الأعداء من نتائج ، حتى وإن كان الموت واحداً من هذه النتائج (٤) ، فسار بمن معه من المسلمين وقد ارتجز شعراً بين فيه أنه لا عذر له في عدم الجهاد فقال (٥) :

مَا عَلَيَّ
إِنْ لَمْ أَقَاتِلْهُمْ فَجَزُوا لِمَتِي

ولمّا علم الأعداء بمسير هذا القائد عمدوا إلى تغوير الآبار والطرق التي يمر بها هذا القائد فلما علم الجنيد بذلك أخذ طريقاً آخر يقال له طريق الشعب فلما توسطه هو وأصحابه فإذا بالترك قد أحد قوا بالمسلمين من كل ناحية فدنا الجيشان بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقاثلوا مثله فيما مضى قبله من الأيام فلم يزل الأمر كذلك حتى انتصر المسلمون وانهزم الكافرون (٦) ، وهذا النصر ما تحقق إلا بعد أن تمزقت أجساد طاهرة وأريق دماء زكية فقد استشهد في هذه المعركة الكثير من الجنود المسلمين فحزن عليهم إخوانهم المسلمين ومنهم خالد بن المعارك الملقب بابن عرس فنكر شجاعة هؤلاء الشهداء الذين استشهدوا في يوم الشعب فقال (٧) :

(١) يُنظر: الفتوح : ١٠١/٨ - ١٠٢

(٢) البطل في شعر الحماسة : ٢٦١ .

(٣) تاريخ الطبري : ٢٠٦/٨ . يُنظر: الفتوح : ١٠١/٨ ، الكامل في التاريخ : ١٦٣/٥ .

(٤) يُنظر: البطل في شعر الحماسة : ٢٦٤ .

(٥) تاريخ الطبري : ٢٠٦/٨ ، يُنظر: الفتوح : ١٠١/٨ ، الكامل في التاريخ : ١٦٣/٥ .

(٦) يُنظر: الفتوح : ١٠١/٨ - ١٠٢ .

(٧) تاريخ الطبري : ٢١٦/٨ .

وَكَمْ ثَوَى فِي الشَّعْبِ مِنْ حَازِمٍ جَلَدَ الْقَوَى ذِي مِرَّةٍ مَاجِدٍ
يَسْتَجِدُّ الْخَطْبُ وَيَغْشَى الْوَعَى لَا هَائِبٌ غَسٌّ وَلَا نَاكِدٍ

وبعد هذا الانتصار المعطر بدماء هؤلاء الشهداء البواسل واصل الجنيد سيره الجهادي نحو بلاد الأعداء البعيدة فكان النصر حليفه في كل معركة يخوض غمارها ففتح سمرقند^(١) ، ودخل مدينة مرو التي كانت المحطة الأخيرة لهذا القائد إذ مات فيها شهيداً في سبيله تعالى^(٢) .

ولم تتوقف عجلة الجهاد بوفاة هذا القائد لأن المسلمين أدرکوا أهمية الجهاد فبواسطته تتمتع البشرية بالعدالة في ميادينها كلها أفراداً وجماعات فلا يبقى ، وبه تتحقق كلمة الله العليا في الأرض خالصة من كل شائبة لذلك سار قادة المسلمين للفتوح ونشر رسالة الإسلام مهما بعدت الأصقاع وانتشروا في جميع القارات ساسة وقادة ومربين^(٣) ، ومن هؤلاء القائد أسد بن عبد^(٤) الله القسري الذي أعده الإسلام لتحطيم الطواغيت التي تمنع دخول الإسلام إلى شعوبها وتحرمهم منه فسار معلنا الجهاد لنشر دعوة الإسلام وعدالته^(٥) ، فكان لهذا القائد أثر حاسم في هزيمة خاقان وبالتالي (صيانة أمن العراق وحماية بيت الله الحرام إذ تمكن هذا القائد من الإيقاع بالترك وشتت جموعهم ، بين عظيم مصروع ، وجريح مطروح بلفظ أنفاسه الأخيرة ، وأسير صاغر ينتظر العقاب ، وفار

(١) يُنظر: الفتوح: ١٠٣/٨ - ١٠٥ .

(٢) يُنظر: تاريخ الطبري: ٢١٨/٨ - ٢١٩ ، والفتوح: ١٠٦/٨ .

(٣) يُنظر: الجهاد في سبيل الله: ٥١ - ٥٠ . رشيد نعمان الكردي .

(٤) هو أسد بن عبد الله القسري الحلبي أمير من الأجواد والشحمان ولد ونشأ في دمشق وفي أيام قيادته حاشيت السترك بخرسان وأغاروا حتى أتوا مرو الروذ فسار إليهم أسد وكانت له معهم وقائع انتصت بهزيمته ، وتوفي في مدينة مسرو فهنا القائد الشجعان قد سحر نفسه مجاهداً في سبيله الله تعالى يقود جيوش المسلمين إلى قتال الكافرين فما زال كذلك حتى مات شهيداً في إحدى المدن التي أدخل نور الإسلام إليها . يُنظر: تاريخ الطبري: ٢٤٠/٨ - ٢٤٩ ، ودائرة المعارف الإسلامية: ١٠٤/٢ .

(٥) يُنظر: الجهاد في سبيل الله: ٥١ .

مذعور يخشى الموت) (١) ، فهذا أبو الهندي التميمي بصور لنا هذه الشجاعة لهذا القائد فقال (٢):

أَبَا مُنْذِرٍ لَوْلَا مُسِيرُكَ لَمْ يَكُنْ عِرَاقٌ وَلَا انْقَادَاتُ مُلُوكِ الْأَعَاجِمِ
وَلَا حِجٌّ بَيْنَ اللَّهِ مَدْحِجٌ رَاكِبٌ وَلَا عَمْرُ الْبَطْحَاءِ بَعْدَ الْمَوَاسِمِ
فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ بَيْنَ سَانَ وَجُزْرَةَ كَثِيرِ الْأَيَادِي مِنْ مُلُوكِ قَمَايِمِ
تَرَكْتَ بَارِضِ الْجُوزْجَانِ تَزْوَرَةَ سِبَاعٌ وَعَقِبَانِ لِحَزْرِ الْغَلَاصِمِ

إنَّ قائداً هكذا صفاته يكون له أثر في حسم المعارك لصالح المسلمين فهو عندما يقاتل الكافرين ستكون شجاعته وخبرته العسكرية موضع استنارة المجاهدين الذين يقاتلون خلف رايته ، فعندما يرون قائدهم أسداً يمزق الأعداء يواصلون جهادهم لأنهم آمنوا أنَّ قائدهم إنما يقاتل على حق فهم إذاً على النهج الصحيح فمن قُتِلَ منهم فهو شهيد ومن بقي وفاز بالنصر فهو مؤمن مجاهد شجاع يستحق الفخر والاعتزاز به ، فإذا ما فقد هذا القائد كانت له رنة أسمى في نفوس المقاتلين ، وإحساس بالفقد في قلوب الشعراء ، لان بطولته مبعث استنارة وصولاته موطن توثيب ، وجلاده في المعارك وتضحيته في الإقدام تترك في نفوس الشعراء أثراً يوجي إليهم بالمعاني النادرة ويضعهم في المواجهة الحقيقية لتمثيل صورة البطل ووقوفهم عند معاني البطولة ، وقد تغلب أعماله الآخرين الذين تزدهم الساحة بأمثاله من المقاتلين وقد ينفرد أحدهم بشجاعة نادرة يُبدي من الجراءة ما يُصبح فيه موضع اعتزاز الشعراء لكن أثر القائد العسكري في إدارة المعركة وحسم النزاع وتحديد سير القتال تبقى الصورة المثلى في تصور الشعراء ، والوجه الأمثل في اختيار النموذج (٣) ، فهذا ابن عرس العبدي يرى في شخص هذا القائد نموذج البطولة فقال (٤):

(١) الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي: ١٨٢ .

(٢) تاريخ الطبري: ٢٤٠/٨ .

(٣) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١هـ - ٢٠٩ .

(٤) تاريخ الطبري: ٢٤٨/٨ .

أَتَاهُ جَمَاهُ فِي جَوْفِ صِيغٍ وَكَمْ بِالصِّغِ مِنْ بَطْلِ شُجَاعٍ ^(١)
كَتَابٍ قَدْ يُجَيِّبُونَ الْمُنَادِي عَلَيَّ جُرْدٍ مُسْمُومَةٍ سِرَاعٍ ^(٢)

وكان سليمان بن قتته مولى تميم بن مرة القرشيين صديقاً لهذا القائد ^(٣)،

(فرشاه رثاء حاراً تحرق فيه علي هذا القائد فأشاد به ، فقد كان أسداً في رأيه حامياً لحقيقتهم قائماً بأمرهم حاملاً لهمومهم ساعياً لانتراع حقوقهم ، أخذاً بثاراتهم ، وكان فارسهم المشهور الذي طالما حزَّ سيفه رؤوس أعدائهم حزاً وطعنهم برمحه طعناً) ^(٤) فقال ^(٥):

مَرَاجِمٌ أَقْوَامٌ وَمُرْدِي عَظِيمَةٍ وَطَلَابٌ أَوْتَارٍ عِفْرِنَا عَثْمَا
لَقَدْ كَانَ يُعْضِي السَّيْفِ فِي الرُّوعِ حَقَهُ وَيُرْوِي السَّنَانَ الزَّاعِجِي الْمَقْوَمَا

إنَّ بطولة هذا القائد عندما نظيفها إلى ما سبقها من صور البطولة والفداء والتضحية التي أبداهها مجاهدوا هذا العصر وجسدوها خير تجسيد عندها يمكن القول إنَّ بطولات مجاهدي هذا العصر هي كبطولات سلفهم الصالح في صدر الإسلام ، فأصبح بها سجل هذا العصر حافلاً بالكثير من نماذج البطولة الحقَّة ، التي أثبتت صدق المنهج الذي سار عليه سلفهم الصالح ، وواصلوا هم السير عليه وفي سبيله قاتلوا وقتلوا فكان استشهادهم نموذجاً متقدماً وتضحياتهم مفخرة نبيلة فيهم رجال قدموا نفوسهم رخيصة ، وحملوا منايهم إلى ديار بعيدة يؤدون واجباً إنسانياً ، ويدافعون عن قيم أصيلة ويخلصون لعقيدة سامية ^(٦) ، كما لفت نظر البحث من خلال الشواهد الخاصة بتحديد معالم بطولة شهداء هذا العصر ان بطولتهم في ساحات الحرب لم تنفصل عن بطولتهم الأخلاقية ، بل إنها كانت (متلاحمة تلاحماً عضوياً لا يقبل التجزئة والانفصام ، حتى إنَّ البطولة بكل

(١) صيغ : ناحية من نواحي حراسان يُنظر: معجم البلدان: ٥ / ٢١٤ .

(٢) جرد من الحين قصصات الشعر: يُنظر: اللسان: ١ / ٥٨٨ (جرد) .

(٣) يُنظر: تاريخ الضري: ٢٤٩/٨ .

(٤) الشعر العربي حراسان في العصر الأموي : ٢٢٧ .

(٥) تاريخ الطبري : ٢٤٩/٨ .

(٦) شعر الحرب حتى ٥ - ١ - ٢٩٢ .

ما تحمله هذه الكلمة من معان ودلالات لا تكون بطولية حقه إلا بذلك الاقتران والتلاحم^(١).

٢. الصبر:

الصبر خلقٌ جميل ، وسلاح عظيم إذا ما تسلح به حامله ، وجعل منه درعه وعتاده، فكان الصبر وصية خلفاء المسلمين لقادة جيوشهم الذين جعلوا منه سلاحاً لهم ولمن تحت إمرتهم من جنود المسلمين ، وكان الصبر سلاحاً ضارباً حسم الكثير من المعارك لصالح المسلمين ضد أعدائهم ، فبه نال المجاهدون الجنة يوم أن صبروا على قتال المشركين حتى فاضت أرواحهم إلى جنات النعيم ، وقد تجسد كل ذلك في سيرة شهداء صدر الإسلام ، فكانوا خير قدوة يقتدي بها مجاهدوا العصر الأموي .

وهذا بشر بن مطر الأزدي أحد الفتيّة العشرة الذين التحقوا بجيش مسلمة بن عبد الملك بن مروان يحضُّ أصحابه ويوصيهم بأن يصبروا على جهاد الأعداء ، فإنه طريقهم إلى دار السلام ، حيث جنان النعيم ، فقال^(٢):

صَبْرًا هَذَا يَا بَنِي الْكِرَامِ حَتَّى تَحْلُسُوا سَاحَةَ السَّلَامِ

كذلك فإن الصبر كان سلاح قادة جيوش المسلمين وهم يحملون على أعداء الإسلام، فالجراح بن عبد الله الحكمي قائد جيش المسلمين لقتال الخزر ، فعندما اشتدت الحرب بينه وبين الأعداء وتنازل الفرسان حمل هذا القائد على الأعداء وأنشد شعرا يبين فيه صدق إيمانه وتمسكه بدينه ، كما إنه يمتلك سيفاً صارماً مسنوناً يفتك به الأعداء ، إذ جعل هذا القائد من الصبر خير قرين له في ساحة المعركة ، فقال^(٣):

(١) البطل في شعر الحماسة ٢٥٤ .

(٢) الفتوح: ١٨٠/٧ .

(٣) المصدر نفسه: ٤١/٨ .

لَمْ يَيْتَقِ إِلَّا حَسْبِي وَدِينِي وَصَارِمٌ ذُو صَنْعَةٍ مَسْنُونٍ
لِلَّهِ دُرُّ الصَّبْرِ مِنْ قَرِينٍ قَرِينٌ صِدْقٌ غَيْرٌ مَأْخُؤُونَ

فحمل هذا القائد على جميع الخزر فلم يزل يقاتلهم حتى قتل شهيدا "رحمه الله

تعالى" (١). ولم يكن هذا الصبر الذي تحلى به هذا القائد بعيدا عن سجل العرب ، فهذا

الفرزدق يوثق شجاعة هذا القائد وصبره وثباته حتى مشى به إلى "رحمة الله تعالى" السيف

للسوارم ، فقال الفرزدق (٢):

لَقَدْ صَبَرَ الْجِرَاحُ حَتَّى مَشَتْ بِهِ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ السُّيُوفُ الصَّوَارِمُ

إن هذه الأمثلة على قلتها تجسد لنا كيف اتصف شهداء هذا العصر بهذه الخلق

العظيم ، وجعلوا منه رفيقهم الدائم في ساحات الوغى .

(١) يظن المصنف أنه .

(٢) الفرزدق ، ص ١٠٠ ، رقم ١٠٠٠

٢. الإقدام:

لم يتردد مجاهدو هذا العصر لحظة واحدة عن الإقدام ومواجهة أعداء الإسلام بل كانوا كسلفهم الصالح رجال صدر الإسلام اسوداً تزار وترمجر وتفتك بالكفار فتكاً ذريعاً وكأنما أصبحوا رموزاً لبطولات سماوية تصارع بطولات أرضية^(١) ، فحربهم لأعداء الإسلام قد جلبت إلى نفوسهم (خصال الشجاعة والنجدة والباس والقوة وهي صفات حميدة تتنافى وصفات الخور والضعف والجبن والهلع ، فكانوا يتمادحون بالموت في الهيجا وميادين الحروب قعصاً بأطراف الرماح أو سقوطاً تحت ظلال السيوف)^(٢) ، بهذه النفوس المؤمنة الصادقة واصلت قوافل التحرير مسيرتها الجهادية وتدفقت معها موجات المجاهدين الذين وجدوا في الجهاد حقاً مشروعاً وتضحية مقبولة وطريقاً لتأكيد الإيمان الصادق^(٣) .

فهذه القوافل الجهادية (تستهين بكل النوازع التي تحاول الاستحواذ عليها رغبات الحياة الضائعة ، وتتقدم بكل جرأة وشجاعة لتحمل راية الإقدام بلا تردد ، وتشر صوت الحقيقة بلا خوف ، لأنها لم تجد لها حياة أفضل من التقدم ولم تجد لها عيشاً كما يكون في الإقدام)^(٤) .

ولم يكن الشعر غائبا عن هذه الحملات الجهادية التحريرية ، فمثلما واكب قوافل جيوش صدر الإسلام واصل مسيرته مع جيوش هذا العصر فكان (تعبيراً صادقاً على أفواه الجند وهم ينتقلون من مكان إلى آخر ويطاردون الفرس من مدينة إلى مدينة

(١) يُنظر: البطولة في الشعر مر ٣٧ .

(٢) شعر الحرب ج ١ - ١٠٣ / ١٠٣ .

(٣) التراث العربي ٣٧ - ١١ .

ويقتحمون القلاع والحصون ، وكان الشعر في كل صورته صوتاً من أصوات التاريخ الحقيقي ، وحركة متناسقة من حركات الوجدان الأصيل الذي لم يخضع لكل هوى، ولم يتأثر بكل رواية ولم ينطلق إلا وفق المقاييس التي كانت تحددها المعارك (١).

فعندما التقى جيش المسلمين بقيادة مسلمة بن عبد الملك بن مروان مع جيش الروم تقدم هارون بن الحصين إلى قتال الأعداء فتنازل مع عالج من الأعداء إذ تمكن الأخير من طعنة ليمسقط هارون شهيداً "رحمه الله" (٢).

فتقدم بعده أخوه احمد بن الحصين نحو العالج فضربه ضربة على فخذه فقطعها فمات منها هذا العالج وما أن قتله احمد حتى خرج إليه عالج آخر يقال له بولص فنظر إليه احمد وقصد نحوه دون أن يجزع من الموت بل هو حريص الحرص كله على الجنة كما يحرص الأعداء على الحياة (٣)، فقال (٤):

صَبْرًا عَلَى الْمَكْرُوهِ مِنِّي نَفْسِي
فَبِأَمَّا الدُّنْيَا كَيْومِ أَمْسِ

دُونَكَ حَرْبًا لَا تَقِيهِ تَرْسِي
كَيْمَا أَنَالَ مَرَلًا فِي الْقُدْسِ

(١) شعر الحرب حتى ق ١هـ: ٢٦١ .

(٢) يُنظر: الفتح: ١٧٩/٧-١٨٠ .

(٣) يُنظر: شعر الفتح الإسلامية: ٢٧٥ .

(٤) الفتح: ١٨٠/٧ .

فاختلفا طعنيتين إذ طعنه العليج في خاصرته قتيلاً شهيداً "رحمه الله" ، فلما قُتل هارون بن الحصين وأخوه احمد خرج من بعدها سعيد بن إسماعيل الاسدي نحو ذلك العليج وهو ينشد شعراً أعلن فيه بيع نفسه لله تعالى بعد ان يقاتل هؤلاء الأعداء فقال ^(١):

يَا بُولصِ الرُّومِ إِلَيْكَ نَفْسِي قَدْ طَالَ فِي ظِلِّ الْخَطَايَا حَبْسِي
اليَوْمِ أَجْهِي إِخْوَتِي بِالْحَمْسِ كَيْمَا يَكُونُ بَطْعَنُ سَبْعِ رَمْسِي

انه مؤمن (والمؤمن الذي عرف الله احب الله ورضي به رباً وأمراً ومعبوداً ، كما رضي بان يكون هو له عبداً ذليلاً يدرك في الذل له كل الذل عين الكرامة والعزة ، ويحس بين جنبيه بدفق السعادة وغمر الهناءة ، فلا يبالي بعد ان يقدم له وقته وجهده وماله وكل طاقاته ، بل نفسه وروحه حتى يرضى فان الموت فيه وله حياة^(٢)) فالتقيا بضربتين ضربة الاسدي ضربة جدله قتيلاً ثم خرج له عليج آخر تبارز معه الاسدي .
فبينما هما كذلك شد العليج عنى الاسدي بخنجر كان معه فطعنه في نحره فقتله شهيداً سعيداً بنعمة الشهادة التي خرج وهو حريص على الفوز بها^(٣) .

ولم يتوقف سيل المجاهدين عن الإقدام نحو أعداء الإسلام لان بذل النفوس في الحرب ، وإرخاصها في الروع كانت في اعتقاد فرسان المسلمين حقيقة لا يمكن ان تبتعد عن حياتهم مهما كانت التضحية^(٤) ، لذلك خرج يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري نحو

(١) الفتوح : ١٨٠/٧ .

(٢) كيف السيل إلى الله الجهد - ولاشهادة في الإسلام . ١٦٦ .

(٣) يُطر: الفتوح: ١٨٠/٧ .

(٤) يُط: الطل في لربا . ١٠٠ .

العلج الذي قتل الاسدي ويدعى قسطنطين الأصغر فمضى نحوه ، وقد عزم على بيع نفسه رخيصة في سبيل الله تعالى ولا يريد أن يتخلف عن اللحاق بالذين سبقوه إلى الشهادة لأنه قد نال ما يكفيه من لذة العيش وصفوته، فقال (١) :

لَتَذَهَبَنَّ الْيَوْمَ نَفْسِي أَسْنًا إِذْ كُنْتُ بَعْدَ خَمْسَةِ مَخْلَفًا
قَدْ نَلْتُ مِنْ لَذَّةِ عَيْشِي مَا صَفَا حَسْبِي الَّذِي عَايَنْتُ حَسْبِي وَكَفَا

فحمل الأنصاري على قسطنطين العلج فقتله ، ثم وقف ودعا إلى البراز فلم يخرج إليه أحد وكيف يخرجون إليه وهم قد أدركوا شجاعته وإقدامه نحو الموت دون تردد أو خوف فقد رأوا فيه المقاتل الجريء الذي حمل للنفس رخيصة في سبيل العقيدة التي آمن بها وجاهد في سبيل الله وهو مؤمن بالقدر (٢) . ووجد في القرب من المولى صلى الله عليه وسلم لذة وسعادة لا توصف (٣) ، لذلك واصل جولاته على أعداء الإسلام واخذ ينشد رجزاً جهادياً يحرض به نفسه على الإقدام نحو الأعداء فقال(٤) :

هَيْهَاتَ مِنِّي سَفَهِي وَطَيْشِي أَقْصِدُ لِلْحِصْنِ أَمَامَ جَيْشِي
قَدْ ذَهَبَ السَّادَةُ مِنْ قُرَيْشٍ لَا خَيْرَ لِي مِنْ بَعْدِهِمْ فِي الْعَيْشِ

(١) الفتوح: ١٨٠/٧ .

(٢) يُنظر: شعر الحرب حتى ق ١٥١ : ٢٦٣ .

(٣) يُنظر: كيف السبيل إلى الله الجهاد والاستشهاد في الإسلام : ٦١/١٦ .

(٤) الفتوح: ١٨٢/٧ .

مما زال هذا المجاهد المقدام يواصل قتاله لأعداء الإسلام حتى رزقه الله تعالى الشهادة (١) .

هكذا يستطيع رجال الإسلام الموت في حومات الوغى دون خوف أو تردد بل كانوا يتقدمون المقاتلين بصدور تئن بانين حب الشهادة في سبيله تعالى ويتمنى ضربة سيف أو طعنة رمح حتى يتسنى لهذا الأنين أن يتوقف لأن النفس قد خرجت إلى المولى ﷺ في دار عليين .

٤. الكرم :

ان من يخرج مجاهداً في سبيل الله تعالى وهو يوجد بنفسه الطاهرة راجياً الفوز بمرضاته تعالى وجناته الواسعة التي جعلها ثمناً لهذه النفوس الطاهرة لا يبخل بماله ومناعه الزائل ، بل هي لا تعد شيئاً بالتقياس إلى الجود بالنفس وهو أقصى غاية الجود .
فالمسلم كان حريصاً كل الحرص على كل عمل من شأنه ان يقربه إلى المولى ﷺ ومن هذه الأعمال هو الأنفاق في سبيل الله تعالى ، فالجود أو الكرم نستطيع ان نقول عنه إنه الصفة الأكثر تميزاً عند العرب دون غيرهم ، فيه عرفوا وبهم عرف .
وقد رأينا ونحن نتصفح سيرة شهداء صدر الإسلام الأبرار مدى الاهتمام بهذه الصفة الكريمة التي نالوا بها الذكر للحن في الدنيا فتردد لسمهم على لسان كل مسلم وهو يشيد بعطائهم ونوالهم وبها نالوا مرضات الرب تبارك وتعالى .
وشهداء هذا العصر هم كسلفهم الصالح فقد أعطوا هذه الصفة حقها فأنفقوا ما يملكون من مال ومناخ في سبيل الله تعالى ، بل تجاوز عطائهم وكرمهم هذا للمناخ إلى

(١) يُنظر: المصدر نفسه : ١٨٣/٧ .

ان وجودوا بأنفسهم الطاهرة ، فاحتضنت الأرض البعيدة أجسادهم وشربت الأرض دماءهم، وبالمقابل خلد إخوانهم المسلمون كرمهم وجودهم ، لانه حق يؤدونه تجاه هؤلاء الشهداء .

فعبد العزيز بن زرارة بن حرب كان جواداً كريماً فحط الحريم وكف العظيم ، وأغنى الفقير بكرمه عن السؤال ، وأعطى الكبير وكفاه ، لكنه كان يُعد عمله هذا صغيراً لا كثيراً حتى يكون حافزاً له على مواصلة عطائه وكرمه هذا ما أثبتته لنا أبوه زرارة ، فقال (١) :

فَحَطَّ الْحَرِيمَ وَكَفَّ الْعَظِيمَ وَأَغْنَى الْفَقِيرَ وَأَعْطَى الْكَبِيرَا
وَلَمْ يَرِ مَا كَانَ مِنْ فِعْلِهِ كَبِيرًا وَلَكِنْ رَأَاهُ صَغِيرَا

إن أفضل الجود ما كان مع الحاجة (٢) ، قال تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٣) . وهذا ما اتصف به وائل أخو شاعرنا الشمردل ، فقد كان كريماً يصل الفقراء والمحتاجين وكرمه هذا لا ينقطع عنهم حتى وإن كان مقترراً محتاجاً ، وكان لا يخيب السائلين (٤) ، مهما ألحوا عليه أو اكثروا عليه الطلب فقال الشمردل موثقاً هذا الجود له (٥) :

وصول إذا استغنى وإن كان مقترراً من المال لم تحف الصديق مسائله

(١) تاريخ ابن عساکر: ٥ / ٣٧٤ .

(٢) ديوان المعاني: ١ / ١٠٧ .

(٣) سورة الحشر: الآية ٩ .

(٤) يُنظر: شعراء أمويون: ق٢ / ٥٠٩ .

(٥) المصدر نفسه: ق٢ / ٥٤٠ .

وكان أجود ما يكون تجاه ضيوف الشتاء الذين آذتهم ليلالي الشتاء الباردة فهم بأمر الحاجة إلى طعام ومكان دافئ ، فيهتم بهم ويعتني بهم أشد العناية ، حتى يبدو لنا أنهم أيامهم وأراملهم فيقيم لهم أحسن أنواع اللحوم وأجودها فهي طرية ناعمة ناضجة وما تزال قدوره تغلي بالنبيء من هذه اللحوم ، فكلما خبت ناره زادها وقوداً حتى يكون جاهزاً لإكرام ضيوفه ، فقال الشمريل (١) :

هَضُومٌ لِأَضْيَافِ الشِّتَاءِ كَأَمَّا يَرَاهُ الْحَيَا أَيْتَامَهُ وَأَرَامُلَهُ
رَخِصٌ نَضِيجِ اللَّحْمِ يُغْلَى نَيْئِهِ إِذَا بَرَّدَتْ عِنْدَ الصَّلَاءِ أُنَامِلَهُ

(ولم يكن بخيلاً في الحياة بماله) (٢) ، فمنزله في مقام معروف لكل السائلين ، فهو رجل عُرف بكرمه وأخلاقه الفاضلة ومهما ظن به المتفرقون فإنه يسمو بهم ويديبهم إلى داره بما وضعه من علامات في الطريق المؤدية إلى داره ، لكي يستدل بها من كانت له حاجة عنده ، بل حتى الذي أضل طريقه في وسط المقازة الواسعة فإنه يهتدي إليه بواسطة خيوله الكثيرة التي أعدها لوقت الحاجة فهي تقود صاحبها إلى دار سيدها لكي يقضي حاجته ، فقال الشمريل (٣) :

أَخِي لَا يَجِئُكَ فِي الْحَيَاةِ بِمَالِهِ عَلَيَّ وَلَا مُسْتَبِطًا النَّصْرُ خَاذِلُهُ
أَقَامَ حِمْدًا بَيْنَ تَلَيْثٍ (٤) دَارُهُ وَيَيْشَةُ (٥) لَا يَبْعُدُ أَخِي وَشَمْلُهُ
وَشِعْبٍ يَطْنُونَ الظُّنُونُ سَمَائِمَ لِئَانِي الصُّوَى (٦) يَشْنِي الضَّعِيفَ كَمَاوَلُهُ
بِحَرْقٍ (٧) مِنَ الْمَوْمَاةِ (٨) قُودٍ (٩) رِعَانُهُ

(١) شعاء أمويون : ق/٢ - ٥٤٠ - ٥٤١ .

(٢) النصر نفسه : ق/٢ - ٥٠٩ .

(٣) النصر نفسه : ق/٢ - ٥٤٣ .

(٤) تليث : موضع بالحجاز قرب مكة . يُنظر معجم اللسان : ٤٣٢ / ٢ .

(٥) يشة : قرية عثاء في واد كبير الأهل بلاد اليس . يُنظر : النصر نفسه : ٤١٥ .

(٦) الصوى : أعلام من حجارة مصوبة في الفيافي والنفارة المحيولة يستدل بها على الطرق .

يُنظر : اللسان : ٤ / ٢٥٣١ (صون) .

(٧) الحرق : الأرض البعيدة الغلاة الدائمة حية . ذلك الانحراق لربها . يُنظر : المصدر نفسه : ١١٤٢/٢ - ١١٤٣/٢ .

(٨) الموماة : المغارة الواسعة . يُنظر : المصدر نفسه : ٤٣٠١ / (موم) .

(٩) قود : الخشب الذي يحرقه الناس . يُنظر : المصدر نفسه : ٣٧٧٠/٥ .

ومتى كرم وائل كان قدامه وانحكم فهم فتنة جود ومكرمة ، يسعون لدفع الصر

وإطعام الجائع ، فهذا الشمردل ينقل لنا هذا الكرم فيقول (١) :

لَا يَبْعَدُ فِتْيَا جُودٍ وَمُكْرَمَةٍ لِدَفْعِ ضَيْمٍ وَقَتْلِ الْجُوعِ وَالْقَرَمِ (٢)

إن المرثي عندما يستجيب لدعوة الكرم وخاصة إذا أصاب الناس قحط شديد فإن الناس بأمر الحاجة إلى كرمه ، فوصل الفقراء والمحتاجين واستجاب لمطالب السائلين ، ومن يكون هذا حاله مع الكرم فإنه سيرتك باستمهاهه أثراً كبيراً في هؤلاء جميعاً ، فعندما استشهد أخوة الشمردل الثلاثة أصاب ضيوفهم الفقر ، ولقدتدوا إلى كرمهم وإحسانهم ، بل إن نارهم التي كانوا يوقدونها ليلاً لكي يهتدي بها السائلين قد أخذها كل فتى وغل ، هذا ما تصوره الشمردل فقال (٣) :

فَلَا يَبْعَدُ لِلدَّاعِيَيْنِ إِلَيْهِمَا إِذَا أَغْبَرَ آفَاقُ السَّمَاءِ مِنَ الْخَلْلِ
فَقَدْ عَدِمَ الْأَضْيَافُ بَعْدَهُمَا الْقَرَى وَأَخْمَدُ نَارَ اللَّيْلِ كُلُّ فَتَى وَغَلِّ (٤)

كذلك كان محمد بن الأخطل جواداً إلى درجة الإيثار فقميصه الممزق يوحى لمن يراه بأنه لا يملك قوت نفسه لكنه في حقيقة الأمر سيد كريم اشغلته حاجات الناس عن نفسه فهو يرعى أيتام الشتاء الذين أذاهم البرد القارص فخرجوا يبحثون عن مأوى يلتمسون فيه الدفء والطعام ، فكان لهم ذلك عند محمد الذي شمر عن ساعده وأعد قدره الشديدة الغليان بما أوقد تحتها من نار عالية تكون هانية للسائلين إلى داره عندما يشتد عليهم الظلام وتضيق بهم السبل وسط الجبال العالية ، لكن ناراً عالية كالتي أوقدها محمد كافية لهدايتهم ، فتوافد إليه اليتامى على آثار أرامل سود (٥) ، إن هذه اللوحة الرائعة لكرم هذا الفتى قد وثقها الفرزدق فقال (٦) :

تَرَى مَزِقَ السَّرْبَالِ فَوْقَ سَمِيدِ يَدَاهُ لِأَيْتَامِ الشِّتَاءِ طَعَامَهَا

(١) شعراء أمويون: ق ٥٥٢ / ٢ .

(٢) القرم : شدة الشهوة إلى اللحم . يُنظر: اللسان : ٣٦٠٤ / ٥ (قرم)

(٣) شعراء أمويون ق ٥٤٨ / ٢ .

(٤) الوغل : الوغل من الرجال هو النذل الضعيف الساقط والمقصر في الأشياء . يُنظر: اللسان: ٤٨٧٩ / ٦ (وغل)

(٥) يُنظر: الفرزدق: ٤٢٣ .

(٦) شرح ديوان الفرزدق: ٧٥٢ / ٢ .

وَكَانَتْ يَدَاهُ الْمَرْزَمِينَ وَقِيدْرُهُ وَلَلْبَيْتِ وَالْأَبْطَالِ فِيهَا سَامُهَا
تَفَرَّقُ عَنْهَا النَّارُ وَالنَّابُ تَرْتَمِي بِأَعْصَابِهَا أَرْجَاؤُهَا وَاهْتِزَامُهَا
جَمَاعٌ يُؤَدِّي اللَّيْلُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَيْهَا إِذَا وَارَى الْجِبَالَ ظَلَامُهَا
يَنَامِي عَلَى آتَارِ سُودٍ كَأَنَّهَا رَبِّالْ دُعَاهَا لِلْمَيْبِتِ نَعَامُهَا

وأخبرنا الفرزدق أيضا بمكان هذا الفتى الكريم ، فهو يسكن الأماكن المرتفعة حتى يكون في قبلة أنظار الضيوف ، على عكس البخيل الذي (ينزل في بطون الأودية ويبعد عن الطريق مخافة الضيف)^(١) ، فقال^(٢) :

لَمَنْ أَخْطَأَتْهُ أَرْبَعَاءُ لَقَدْ رَمَتْ فَتَى كَانَ حَلَالُ الرَّوَابِي سِهَامُهَا

كما لجأ الفرزدق إلى توكيد كرمه ، فبين لنا الأسلوب الذي يتبعه ابن أخيه لدعوة الضيوف الطارقين ليلاً وهو إيقاد النار ، فقال^(٣) :

فَتَى كَشِهَابِ اللَّيْلِ يَرْفَعُ نَارَهُ إِذَا النَّارُ أَحْبَابَهَا لِسَارِ ضِرَامُهَا

وتتسع صورة كرمه في أشد وأصعب الظروف ، فالأرض قد أصابها الجفاف لأن ما في السماء من سحب لا مطر فيه والنوق قد خف لبنها وارتفع ضرعها ، فأصاب الناس الجذب والقحط وهم في أصعب الفصول في فصل الشتاء فهم فيه دون غيره من الفصول بأمر الحاجة إلى من يوجد عليهم ، فاستجاب لدعواتهم محمد وقضى حوائجهم من كل ما رغبوا فيه ، فكرم هذا الفتى دائم في كل الأوقات في الرخاء والشدة ، فقال الفرزدق موثقاً ذلك كله^(٤) :

فَتَى لَمْ يَكُنْ يُدْعَى لَيْسَ مِثْلَهُ إِذَا الرِّيحُ سَاقَ الشُّوْلَ شَلَا جِهَامُهَا
تَكْرُمُهُ عَمَّا يُعَيِّرُ وَالْقِرَى إِذَا السَّنَةُ الْحَمْرَاءُ جَلَحَ عَامُهَا
وَكَانَ حَيًّا لِلْمُحَلِّينَ وَعِصْمَةً إِذَا السَّنَةُ الشُّهْبَاءُ حَلَّ حَرَامُهَا

(١) الأشباه والنظائر: ٢٩/٢ .

(٢) شرح ديوان الفرزدق: ٧٥٢/٢ .

(٣) انصر نفسه .

(٤) انصر نفسه : ٧٥٢/٢ - ٧٥٣ .

إِذَا مَا بَشْتَاءُ الْخَلِّ أَمْسَى قَدْ أَرْتَدَى بِمِثْلِ سَجِيحِ الْأَرْجُوَانِ قَتَامُهَا
أَقُولُ إِذَا قَالُوا وَكُم مِّن قَبِيلَةٍ حَوَّالِكُمْ لَمْ يُتْرَكْ عَلَيْهَا سِنَامُهَا
أَبِي ذِكْرٍ سَوْرَاتٍ إِذَا حُلَّتِ الْحَبِي وَعِنْدَ الْقَرْوَى وَالْأَرْضِ بِأَلِّ ثَمَامُهَا

ولا عجب أن يرسم صورة الكرم هذه لابن أخيه محمد لانه يرى فيه بقية أبيه غالب^(١)،

فقال (٢) :

وَكُنَّا نَرَى مِنْ غَالِبٍ فِي مُحَمَّدٍ خَلَائِقَ يَعْلُو الْفَاعِلِينَ جَسَامُهَا

وعندما يكون الشهيد قائداً فإن صورة كرمه تتسع إلى أبعاد أوسع عما كانت عليه عند عامة الناس ، فعندما مات الجنيد بن عبد الرحمن نجد أبا الجويرية عيسى بن عصمة العبدي يبين لنا سعة كرم هذا القائد لجميع الناس إلى درجة أن الشاعر قد جعل الجود بشخص هذا القائد ، فلما مات مات الجود فقال (٣) :

هَلْكَ الْجُودُ وَالْجَنِيدُ جَمِيعاً فَعَلَى الْجُودِ وَالْجَنِيدِ السَّلَامُ
أَصْبَحَا تَاوِينَ فِي أَرْضِ مَرَوٍ مَا تَغَنَّتْ عَلَيَّ الْغُصُونِ الْحُمَامُ
كُنْتُمَا نَزْهَةَ الْكِرَامِ فَلَمَّمَا مَتَّ مَاتَ التَّدَى وَمَاتَ الْكِرَامُ

لقد أصبح الشعر وثيقة صادقة رافقت مسيرة الشهداء الأبرار ، فخذ فيها الشعراء كل سجية عرف واتصف بها هؤلاء الشهداء وكان الكرم سجية من سجايا كثيرة خلدها الشعراء في وثيقتهم .

(١) يُنظر: الفرردق: ٤٢٣ .

(٢) شرح ديوان الفرردق: ٧٥٣/٢ .

(٣) تاريخ الطبري: ٢١٩/٨ .

المبحث الثالث

الحاني المتخلصة من شعر الشهادة والشهيد

١. مظاهر الحزن وأثاره في مرثي الشهداء :

وجد البحث في شعر الشهادة والشهيد الخاص بشعراء هذا العصر مادة شعرية تستحق هذه التسمية ، وهذه المادة سوف تبين نوع علاقة الرائي بالمرثي هل هي علاقة قرابة أم علاقة صداقة أخوية ؟، كذلك ما آل إليه حال الرائي بعد فقدته المرثي (١) . ولا يدخل ضمن هذه المادة أسلوب نداء العين بالبكاء لانه سوف يدرس في الموضوع المخصص له من الفصل الثالث، الخاص بالدراسة الفنية .

إنَّ هذه التسمية وهذا الانفراد بهذا المبحث لا يعني أنَّ هذه المادة الشعرية قد تميز بها شعراء هذا العصر عن عصر صدر الإسلام ، بل إنَّ شعراء صدر الإسلام كان لديهم حزنهم ومظاهره المختلفة تأثراً منهم لفقدتهم شهداءهم الأبرار ، لكن الأبيات التي عبروا من خلالها هذا الحزن قد أخذت عدداً محدوداً من شعرهم الذي نظموا في رثاء شهداء المسلمين ، أما بالنسبة لشعراء هذا العصر فإنَّ حزنهم بمظاهره المختلفة قد أخذ عدداً أكثر مما هو عليه عند العصر الأول وعليه فإنَّ هذه التسمية وهذا الأفراد هو جديد من حيث الكم ، لا من حيث أصل التسمية .

إنَّ هذا الحزن وما يتركه من آثار في مرثي شهداء هذا العصر لا يختلف عن مثيله عند شعراء صدر الإسلام ، فهو حزن إسلامي فيه الصبر على المصيبة واحتساب الفقيد شهيداً عند الله تعالى ، كما سيؤكد هذا الحزن بمعانيه المتعددة كل ما اتصف به الشهيد من صفات عُرِفَ بها في حياته ، وكذلك فإنَّه سوف يبين لنا أهمية المكانة التي نالها هؤلاء الشهداء في نفوس الناس فضلاً عن أنَّ هذا الحزن هو عاطفة إنسانية لا يخلو منها شعور أي إنسان ، بل إنَّ هذه العاطفة هي التي جعلت من شعر الرثاء أشرف الأشعار هذا ما أكدته إعرابي عندما سئل (ما بال الرثاء أجود أشعاركم؟ قال: لأننا نقول وأكبادنا تحترق) (٢) .

(١) بنظر : الرثاء في الشعر الجاملي وصدر الإسلام: ١٤٢ .

(٢) البيان والبيان: ٣٢٠/٢ ، للمحافظ . وبنظر: هامة الأرب في سون الأدب: ١٦٥/٥ .

(إن الشعور بالفراغ الكبير الذي يتركه الفقد بين أهله وذويه وأصحابه سيخلف في نفس الشاعر - وهو أكثرهم إحساساً - مكاناً لا يسد ، وجرحاً لا يندمل ، وتظل هذه الصورة موحية في نفسه ، دافعة لاستمراريته الشعرية ، حتى تستكمل القصيدة شكلها^(١) .
فهذا الشعور وهذا الإحساس كان موحياً ودافعاً لزرارة بن حرب كي ينظم شعراً ويستكمله في رثاء ابنه عبد العزيز الذي استشهد في قتال الروم مخدأً في شعره هذا شجاعته وكرمه وعفته وكل صفة عرف بها ، كما بين لنا زرارة ومن خلال شعره الأثر الذي تركه نبأ استشهاد ابنه فيه ، إذ أصبح كما يقول شيخاً مصاباً ضريباً^(٢) :

نَعَاهُ ابْنُ حَرْبٍ إِلَى الْغَسَادَةِ فَأَصْبَحْتُ شَيْخًا مُصَابًا ضَرِيْرًا

إن هذا النمط من الشعر يمثل الذروة العاطفية في هذا الشعر ، لما اشتمل عليه من صور وما صاحب التجربة من أحاسيس ، (ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن الشاعر حاول التعبير بكل ما يملك ، ليوصل هذه الحقيقة الى المستمع الذي اهتم به الشاعر كل الاهتمام ، فهو الرجل الذي يتألم بهذه المأساة ، وهو الصديق الذي يشاطر الشاعر هذه الاحزان ، وهو ابن القبيلة التي يفخر بها الشاعر حتى في هذا الموقف الذي يجود فيه بنفسه^(٣) .

(ويمكن ان يسمى هذا النوع من الرثاء بالرثاء الواقعي الذي يصور بصدق ومرارة نظرة الناس الى الموت ومسيرة الحياة بعد الاموات ، ولهذا نقول انه أكثر مرثي النفس حرارة وابعدهم عن الشك وأقربهم الى الحياة الانسانية)^(٤) .

ومثلما كان الشاعر صادق الإحساس والمشاعر تجاه نفسه ، فقد كان صادقاً في مشاعره تجاه الآخرين الذين يرثيهم بشعره ، فعندما استشهد القائد الشجاع سعيد بن عثمان بن عفان رضي الله عنه تأثر باستشهاده الناس وحزنوا عليه ، فهذا خالد بن عقبة نراه يحزن حزناً

(١) دراسات في الشعر الجاهلي: ١٤٦ .

(٢) تاريخ ابن عساکر: ٣٧٤/٥ .

(٣) دراسات في الشعر الجاهلي: ١٥٩ .

(٤) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام: ١٥٧ .

صادقاً صابراً متحسباً ، مُشيداً بسجايها هذا القائد فهو خير الناس نفساً ووالداً ، وكيف لا يكون كذلك وهو ابن خليفة المسلمين الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويخالط هذا الحزن حكمة وموعظة هي أن لا خلود لحي ، وما أصاب سعيد فهو مصير كل إنسان ، فقال (١) :

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ نَفْساً وَوَالِداً سَعِيدُ بِنِ عَثْمَانَ قَتِيلُ الْأَعَاجِمِ
فَإِنْ تَكُنَّ الْأَيَّامُ أَرَدَتْ صُرُوفَهَا سَعِيداً فَهَلْ حَيٌّ مِنَ النَّاسِ سَالِمِ

أما أبو صخر الهذلي (٢) فنجده في قصيدته التي رثى بها ابنه داود (٣) الذي استشهد في قتاله الروم ، يمهّد إلى حالة الحزن في هذه القصيدة ، إذ (يفتتحه بذكر الذين رثى بهم من أخ وعم وابن أخ سمح ، وصاحب وابن عم . كلهم تتابعوا . وإنّ المصير الذي ينتظر الجميع هو الموت ، وإنهم كانوا جميعاً بحوراً إذ اشتد الشتاء ، وقتيان هيجاء ، وحاول الشاعر أن يوحى بجو الحزن ويعيد إلى الصورة دقات الشجن ، ورنات الفاجعة من خلال الصور التي يقدمها ويختارها . فنائبات الدهر لا يرجعن هالكاً إلى أهله ، ونوائب الدهر كثيرة لا تترك مغترراً لفقره ، ولا تصانع أهل الرغائب ، ولا تهاب قوم الشجاع ولو زحفوا من دونه بالكتائب ، وإنّ الفتى رهن المنايا) (٤) ، فقال (٥) :

وَكَمْ مِنْ أَخٍ أَوْ عَمٍّ صِدْقٍ رُزْتُهُ أَوْ ابْنِ أَخٍ سَمِحٍ كَرِيمِ الصَّرَائِبِ
وَمِنْ صَاحِبٍ لِي وَابْنِ عَمٍّ تَتَابَعُوا وَمَنْ ذَا مِنَ الْأَحْيَاءِ لَيْسَ بِذَاهِبِ
بُحُورٍ إِذَا اشْتَدَّ الشِّتَاءُ مَلَاوِثِ وَفَتْيَانٍ هَيْجَا كَالْجَمَالِ الْمَصَاعِبِ
مَتَى يَلْتَمِسُ مَوْلَاهُمْ الْجَلْمَ عِنْدَهُمْ يَجِدُ فَضْلَ جَلْمٍ عِنْدَهُمْ غَيْرَ عَازِبِ

(١) تاريخ ابن عساکر: ١٥٨/٦ .

(٢) هو عبد الله بن سلم السهمي ، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية . ينظر: الأغاني: ٩٨/٢٤ .

(٣) استشهد داود هذا في قتال الروم ، والذي دلنا على استشاده البيت التاسع والخمسون من هذه القصيدة فقال:

سألت مليكي إذ بلائي بفقده وفتاة بأيدي الروم بين المقائب

وقد سبق الباحث إلى هذه الإشارة الدكتور نوري حمودي القيسي . ينظر: شعراء أمويون: ق٤/٢٢٠ . عالم

الكتب ، بيروت .

(٤) المصدر نفسه : ق٤/١٩ .

(٥) شرح أشعار الهذليين: ٩١٧/٢ - ٩١٨ .

أَنَابُوا فَأَعْرَوْا حَيْثُ كَانُوا وَعَظَلُوا
فَلَا نَائِبَاتُ الدَّهْرِ يَرْجِعُنَ هَالِكَا
وَلَا فُقْرًا يَوْمًا تَرَكْنَ لِفَقْرِهِ
وَلَا بَاسِلًا ذَا ثَرَوَةٍ هَبْنَ قَوْمَهُ
فَيَغْدُوا الْفَتَى وَالْمَوْتَ تَحْتَ رِدَائِهِ
يَقُولُ غَدًا أَلْقَى الَّذِي الْيَوْمَ فَاتَنِي
وَيَنْسَى الَّذِي يَعْضِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ
فَلَا تَغْتَبِطُ يَوْمًا بِدُنْيَا وَإِنْ صَفَّتْ
مَعَ الْبَيْضِ كَالْغِرْلَانِ مِثْنَى التَّجَائِبِ
إِلَى أَهْلِهِ وَالذَّهْرُ جَسْمُ النَّوَائِبِ
فِيخْفَى وَلَا صَانَعُنْ أَهْلَ الرِّغَائِبِ
وَلَوْ زَحَفُوا مِنْ دُونِهِ بِالْكَتَائِبِ
وَلَا بَدٌّ مِنْ قَدْرِ مَنْ اللَّهِ وَاجِبِ
وَيَأْمَلُ أَنْ يَلْقَى سُرُورَ الْعَجَائِبِ
يُسَدِّي لَهُ نَسْجُ الْمَنَائِبِ الطَّوَالِبِ
وَلَا تَأْمَنَنَّ الدَّهْرُ صَرْفَ الْعَوَاقِبِ

ففي هذه (المعاني تتجلى تقريرية الإيمان بالموت ، وتتضح وجاهة الأسباب التي يبرر بها عناصر الحدث الذي أحكم قبضته عليه ، وضيق أبواب الإفلات من دائرته ... وتمسك أبيات الحكمة بتلابيب المعاني التي يريد أن يحشدها ليبقى مشدوداً إلى جو الحزن الذي أوحى به هذه التقريرية وانسابت إليه الأفكار التأينينية التي تعود الإنسان عليها عندما تشتد به حالة اليأس وتكبر في نظره مساحة المأساة ليصل إلى طيف داود الذي هاجه بعدما بنت تاليات الكواكب (١) ، فقال (٢) :

وَقَدْ هَاجَنِي طَيْفٌ لِدَاوُدَ بَعْدَمَا
دَنْتُ فَاسْتَقَلَّتْ تَالِيَاتُ الْكَوَاكِبِ

(وهنا تتفجر في نفسه عاطفة الأبوة وتستثار أحاسيس الغربة والفرقة وذهول الفجعية ، وترسم له صور الصدى الذي يحلم بلقائه ليخفف عنه . وهنا تتجلى فلسفة الحياة والموت ، ويقف الشاعر عند الحقائق التي يعجز عن إدراكها البشر وهي تتمثل في غياب الإنسان التي لا ينسى ، وهل هناك عودة لأيب ، وصحبة مع من لا يقدر على فراقه ، وإذا أيقن الإنسان بأن الموت حقيقة لا بد منها ، وأنه يفرق بين الأعداء ويباعد بين

(١) شعراء أمويون: ق ٩/٤ .

(٢) شرح أشعار الفحولين: ٩١٨/٢ .

الأحبة ، ويترك الحياة نهياً لطوارئ وأحداث تتحكم فيها بمصير الناس بما قدر الله عليهم^(١) ، فقال^(٢) :

فَقُلْتُ أَغَمَّتْ مُقَلَّتِي عَمَايَةَ
وَمَا فِي ذَهُولِ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ سَلْوَةٍ
وَعِنْدَكَ لَوْ يَجِيئُ صَدَاكَ فَلَاقِي
فَهَلْ لَكَ طِبُّ نَافِعِي مِنْ عَلاَقَةٍ
تَشَكَّيْتُهَا إِذْ صَدَعَ الدَّهْرُ شَعْبَنَا
وَلَوْلَا يَقِينُ أَمَّا الْمَوْتُ عَزْمَةٌ
لَقُلْتُ لَهُ فِيمَا أَلُمُّ بِرُفْسِهِ
فَمَاذَا تَرَى فِي غُسَائِبٍ لَا يَغُيْبُنِي
لَبِثْتُ وَقَدْ فَارَقْتَنِي غَيْرَ عَاتِبٍ
رُوحَ مَنْ السُّقْمِ الَّذِي هُوَ غَالِي
شِفَاءً لِمَا غَادَرْتَ يَوْمَ التَّنَاضُبِ
تُهِمِّنِي بَيْنَ الْحَشَا وَالسَّرَائِبِ
فَأَمَسْتُ قَدْ أَعَيْتَ فِي الرُّقَى وَالطَّبَائِبِ
مَنْ اللَّهُ حَتَّى يُبْعَثُوا لِلْمَحَاسِبِ
هَلْ أَنْتَ غَدَاً غَادٍ مَعِيَ فَمُصَاحِبِي
فَلَسْتُ بِنَاسِيهِ وَلَيْسَ بِبِأَبِ

إنَّ عاطفة الشاعر تجاه من يرثي هي عاطفة متأججة منبعها الود الصادق في أغلب الأحيان ، الإخاء المحض والمصاحبة الدائمة ، لان فقدان الشخص الذي تتمثل فيه هذه الصفات يعد خسارة بالنسبة للشاعر ، لانه يفقده يفقد هذا الود والإخاء والمصاحبة وقد يكون وقع هذا الفقد كبيراً تتراوح درجته قوة وعاطفة حسب مركز المرثي وأهميته بالنسبة للشاعر ، وقد يلزم الحزن البعض منهم مدة طويلة حتى يضرب المثل فيهم بطول الحزن وامتداد التأثير واستدامة البكاء ، ولهذا يمكن عد هذه العاطفة من الوسائل التي يعبر فيها الإنسان عن المضامين الحقيقية للنفس عندما تحس بالمصاب يقع ، والحياة المستديمة تتبدد أحلامها^(٣) ، والشعراء هم الأقدر على رسم هذد الصورة ، لأنهم يختزنون لوازمها ، ويمتلكون القدرة على إظهار هذه اللوازم^(٤) ، (ويأتي الشمردل اليربوعي الذي قتل اخوته الثلاثة حكم ووائل وقدامه ضمن قائمة هؤلاء الشعراء ، لأنه بكاهم بأرق الشعر ... وتمثل لوحاته الشعرية الخالدة ألواحاً أخرى يمكن

(١) شعراء أمويون: ق ٢١/٤ .

(٢) شرح أشعار المهتلين : ٩١٨/٢ - ٩١٩ .

(٣) يُظَرُّ شعراء أمويون: ق ٥٠٩/٢ .

(٤) يُظَرُّ : المصدر نفس .

إضافتها إلى ألواح الرثاء الخالدة في الأدب العربي ، لما أبداه من عواطف وأوضحة من صور التفرق والتشتيت فهي مرآة تصدر عن قلوب قرحة ، ولهذا جادت معانيها وحسنت ألفاظها (١) ، فهذا الشاعر قد شهد الكثير من نزعات الحزن بفراق الأعبة فلم يكن لها وقع كبير في نفسه ، لكنها إذا كانت في فراق أخ كريم العطاء فإنَّ موقعها سيكون وسط الصدر عندها سوف تظلم بعينه شمس الضحى حتى تتسبه أهله ، فحاله حال أب قد فارق ابنه ، ، فشدّة الحزن كثيراً ما تجعل الشاعر يبت في شعره عبراً وعظات ، فهادم اللذات ومفرق الجماعات يأبى إلا أن يفرق بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، فقد فرق الموت بينه وبين أخويه قدامه ووائل اللذين أحبهما كثيراً ، فقد استنزفا دموعه قليلاً قليلاً ، فأخذ هذا الحزن طريقه إلى عقله ، عندها نجده يصرح ومن شدة الحزن ، كأنه لم يسر مع أتويه يوماً وهم بأحسن حال مجتمعين فرحين ، فقال (٢) :

أَعَادِلُكُمْ مِنْ رَوْعَةٍ قَدْ شَهَدْتُمَا وَغَصَّةَ حُزْنٍ فِي فِرَاقِ أَخٍ جَزَلٍ
إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَ الْحِيَازِمِ أَسَدَفَتْ عَلَيَّ الصُّحَى حَتَّى تُتَسَبَّيْ أَهْلِي
وَمَا أَنَا إِلَّا مِثْلُ مَنْ ضُرِبَتْ لَهُ أَسَى الدَّهْرِ عَنْ ابْنِي أَبٍ فَارِقًا مِثْلِي
أَبْنَى الْمَوْتِ إِلَّا فَجَعَ كُلُّ بَنِي أَبٍ سَيِّمُوسُونَ شَيْءٌ غَيْرَ مُجْتَمَعِي الشَّمَلِ
سَيْلَ حَبِيبِي اللَّذِينَ تَبَرَّضَا دُمُوعِي حَتَّى أَسْرَعَ الْحُزْنَ فِي عَقْلِي
كَأَن لَمْ نَسِرْ يَوْمًا وَنَحْنُ بَغْبُطَةٌ جَمِيعًا وَيَزَلُ عِنْدَ رَحْلَيْهِمَا رَحْلِي

ويبدو لنا ومن خلال قصيدته التي رثى بها أخاه وائل ، انه كان له منزلة عزيزة في نفسه ، فهو يشكو إلى الله وحده لا غيره فقده ، لأنه يؤهو الذي أعطى وأخذ ، ويشكو لوعة حزن أوجعت قلبه ، وقد أدى عظم المصائب إلى تصور الأحداث وتجسيم الروى (٣) ، فقد رأى الشمردل في منامه كأنَّ سناناً رمحه قد سقط ، فعبره على بعض من يعبر

(١) شعراء أمويون : ق ٢ / ٥١٠ .

(٢) المصدر نفسه : ق ٢ / ٥٤٧ .

(٣) يُنظر: المصدر نفسه : ق ٢ / ٥١٠ .

الرؤيا ، فأتاه نعي أخيه وائل (١) ، فقال (٢) :

أَقُولُ وَقَدْ رَجَمْتُ عَنْهُ فَأَسْرَعْتُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ فَقَدَهُ
وَتَحْقِيقَ رُؤْيَا فِي مَنْامِي رَأَيْتُهَا
إِلَى بِأَخْبَارِ الْيَقِينِ مُحَاصِلُهُ
وَلَوْعَةَ حُزْنٍ أَوْجَعُ الْقَلْبَ دَاخِلُهُ
فَكَانَ أَخِي رُحْمِي تَرْفِضُ عَامِلُهُ

فحاول الشاعر تعزية نفسه بالصبر لكنه يأبى المطاوعة ، والعين يخالط جفنيها

القدى ، فقد استنزفت بعد جهدها في البكاء عليه بقيت دمع شجوها إكراما له (٣) فقال (٤) :

أَبْجَا الصَّبْرِ أَنَّ الْعَيْنَ بَعْدَكَ لَمْ يَزَلْ
تَبْرُضُ بَعْدَ الْجَهْدِ مِنْ عَيْرَاتِهَا
يُخَالِطُ جَفْنَيْهَا قَدَى مَا تَرَايِلُهُ
بَقِيَّةُ دَمْعٍ شَجْوَهَا لَكَ بِإِذْلِهِ

وقد كان شاعرنا قليل استشهاد أخيه بجود بدمعه على من مات من الناس ، أما اليوم فقد سُغِلَ بالبكاء عليه ، الذي يتذكره دائما كل ما هب هيف الجنوب ، ومنتهى نسيم الصبا ، تذكره يرسمه بعد أن وُضِعَتْ عليه الأحجار كذلك تُذَكَّرُهُ هاتفةً فوق الغصون تتوح على فقد حمامة قد أبعدتها حبات الغصون عنها (٥) ، فقال (٦) :

وَكُنْتُ أَعِيرُ الدَّمَعَ قَبْلَكَ مِنْ بَكْسِي
تَذَكَّرْنِي هَيْفُ الْجُنُوبِ وَمُنْتَهَى
وَهَاتِفَةٌ فَوْقَ الْغُصُونِ تَفَجَّعَتْ
مِنَ الْوَرَقِ بِالْأَضْيَافِ نَوَاحِ الضَّحَى
فَأَنْتَ عَلَيَّ مِنْ مَاتَ بَعْدَكَ شَاعِلُهُ
نَسِيمُ الصَّبَا رَمَسًا عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
لِفَقْدِ حَمَامٍ أَفْرَدَتْهَا حَبَائِلُهُ
إِذَا الْعَرْفُودُ التَّفَّتْ عَلَيْهِ غَيَاطُهُ

ومما يُذَكَّرُهُ أيضاً بأخيه وائل ، رؤيته للناس وهم يستعدون لحرب الأعداء ، ولكن لا فتيان لهذه الحرب سوى من قد علاهم الشيب ، عندها تذكر فتوة أخيه وحاجة الحرب إليه ،

(١) يُظَرُّ الْأَغَانِي: ٣٨٢/١٣ .

(٢) شعراء أمويون: ٥٤١/٢ .

(٣) يُظَرُّ: المصدر نفسه: ٥١٠/٢ .

(٤) انصدر نفسه: ٥٤٢/٢ .

(٥) يُظَرُّ: المصدر نفسه: ٥١٠/٢ .

(٦) انصدر نفسه: ٥٤٢/٢ .

وكذلك فإنه يتذكره عندما يرى الجاهل يدعو الحلِيم إلى فتنة وضلالة ولا رادع له ، فقال (١) :

وَسُورَةُ أَيَدِي الْقَوْمِ إِذْ حُلَّتِ الْحَبَا حَب الشَّيْبِ وَاسْتَعْرَى أَخَا الْجَلْمِ جَاهِلُهُ

والشاعر يحاول أن (يمهّد للموضوع بأشكال وأضواء وألوان وأصوات تحمل دلالات الحزن وتوضح جانب الصمت ، وتوحي بألوان اليأس ...) (٢) ، فالسموم تلتفح بوجهها في صحراء جرداء ملساء لا شئ فيها يسر الناظر ، والسراب يلف الصخور الصماء المرتفعة من جميع الجهات (٣) ، فقال (٤) :

تَشْبَهُ حَسْرَاهُ الْقَرَأِئِرُ يَرْقَمِي بِمَا ذُو حِدَابٍ يَضْرِبُ الْبِيَدِ سَاحِلُهُ
إِذَا النُّشْرُ فَوْقَ الْآلِ ظَلَّ كَأَنَّهُ قَرَأَ فَرَسٌ يَغْشَى الْأَجْلَةَ كَاهِلُهُ

إِنَّ بَعْدَ أَخِيهِ عَنْهُ قَدْ أَثَرُ فِيهِ إِلَى دَرَجَةٍ أَنْ الشَّاعِرَ يَقُولُ كَأَنِّي لَمْ أَبَايْتَ وَأَتَلًا وَلِسْمِ أَقَابِلِهِ ، لَأَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ فِي الْهَجْرِ (القبر) الَّذِي حَالُ بَيْنِهِ وَبَيْنَ أَخِيهِ ، فقال (٥) :

فَلَا الْبَعْدُ إِلَّا أَنَا بَعْدَ صُحْبَةِ كَانَ لَمْ نَبَايْتَ وَأَتَلًا وَنَقَابِلِهِ
وَأَصْبَحَ بَيْتَ الْهَجْرِ قَدْ حَالَ دُونَهُ وَغَالَ امْرَأٌ مَا كَانَ تَخْشَى غَوَائِلُهُ

وقبل أن يأتيه نبأ استشهاد أخيه الحكم ، أيقن أنه سوف يستشهد ويفقده ويفترق عنه ، بل إن الموت مفترق شمل جميع الآباء والأبناء ، فأخوه (عزيز وغال ، له مكانته الكبيرة ، ومقامه العالي ، ومركزه المرموق . وفقده يشكل فراغاً كبيراً لا يمكن أن يعوض ، وهو عند الجميع تستجيب لفقده الدموع حتى تغشى ، ليس له مثيل في الأحياء عند البعض فهو كالسنان بالنسبة للرمح ،

(١) شعراء أمويون : ق ٤٤٣/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ق ٥١١/٢ .

(٣) يُنْظَرُ : المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه : ق ٥٤٤/٢ .

(٥) المصدر نفسه : ق ٥٤٥/٢ .

والبنان للكف (١) ، وإذا ما فقد الريح سنامه ، والكف بنانه ، فإن النقص فيها بين كبير ، فقال موضحاً ذلك (٢) :

وَقَبْلُ فِرَاقِهِ أَيْقَنْتُ أُنِي وَكُلُّ ابْنِي أَبٍ مُتْفَارِقَانِ
أَخٌ لِي لَوْ دَعَوْتُ أَجَابَ صَوْتِي وَكُنْتُ مَجِيئُهُ أُنِي دَعَايَ
فَقَدَّ أَفْنَى الْبُكَاءِ عَلَيْهِ دُمْعِي وَلَوْ أُنِي الْفَقِيدُ إِذَا بَكَانِي
مَضَى لَسَبِيلِهِ لَمْ يَعْطُرْ ضِمَامًا وَلَمْ تَرْهَبْ غَوَائِلَهُ الْأُدَانِي
وَكُنْتُ سِنَانٌ رُمَحِي مِنْ قَنَائِي وَلَيْسَ الرَّمْحُ إِلَّا بِالسَّنَانِ
وَكُنْتُ بَنَانٌ كَفِّي مِنْ يَمِينِي وَكَيْفَ صَلَاحُهَا بَعْدَ الْبِنَانِ

كما بث من خلال حزنه موعظة وحكمة بليغة ، فهو يؤكد على عدم بقاء الأسياء ، وإن هذه الدار التي يعيش فيها الإنسان ، لابد إن يلحق بها الفناء (٣) ، فقال (٤) :

وَمَا بِنَاءٌ وَإِنْ سُدَّتْ دَعَائِمُهُ إِلَّا سِيُصْبِحُ يَوْمًا خَاوِي الدُّعْمِ

وهذا الفرزدق يحزن على ابن أخيه محمد حزناً عميقاً ، إذ بات ليلته الطرقة الظلماء بديري أربحاء ، وهو يكابد فيها فراق هذا الفتى القريب إلى نفسه ، فدو بقية ذكرى أخيه ، فقال (٥) :

فَبِتُّ بَدِيرِي أَرْجَاءَ بَلِيلَةٍ خِدَارِيَّةٌ يَزْدَادُ طَوْلًا تَمَامُهَا
أَكَابِدُ فِيهَا نَفْسَ أَقْرَبٍ مِّنْ مَّشِي أَبُوهُ لِنَفْسٍ مَاتَ عَنِّي نِيَامُهَا

فتراه يحاول أن يتعزى ، ويهون وجده وحزنه ، فالموت حتم في رقاب العباد ، لكن أحزانه تغلبه ، ويغالبه الأسى فلا يقوى على مغالبتة وحده ، ويطول نحيبه وهو يقف أمام

(١) شعراء أمويون : ق ٥١١/٢ .

(٢) المصدر نفسه : ق ٥٥٣-٥٥٤ .

(٣) الأدب الأموي صور رائعة من البيان العربي : ٧٣ د. ابراهيم علي أبو الخشب .

(٤) شعراء أمويون : ق ٥٥٢/٢ .

(٥) شرح ديوان الفرزدق : ق ٧٥٢/٢ .

القبير الذي ضمه وجعله بعيداً عنه إلى الأبد (١) ، فقال (٢) :

فَهَوَّنَ وَجَدِّي أَنْ كُلَّ أَبٍ أَمْرِي
وَقَدْ تَرَكَ الْأَيَّامَ لِي بَعْدَ صَاحِبِي
كَانَ دَلُوحًا تَرْتَقِي فِي صُعودِهَا
عَلَى حَرِّ خَدِي مِنْ يَدِي تُقْفِي
لِعَمْرِي لَقَدْ عَوَّرْتُ فَوْقَ مُحَمَّدٍ
شَامِيَةً غَبْرَاءَ لَا غَوْلَ غَيْرُهَا

سَيِّكَلُ أَوْ يَلْقَاهُ مِنْهَا لِرَامِهَا
إِذَا أَظْلَمَتْ عَيْنًا طَوِيلًا سِجَامِهَا
يُصِيبُ مَسِيلِي مَقْلَتِي سِلَامِهَا
تَنَاطُرُ مِنْ إِنْسَانٍ عَيْنِي نِظَامِهَا
قَلِيًّا بِهِ عَنَّا طَوِيلًا مَقَامِهَا
إِلَيْهَا مِنَ الدُّنْيَا الْغُرُورِ إِنْصِرَامِهَا

فأصبح محمد في قبر هوة عميقة تحيط به جوانبها ، وانهاled عليه ترابها الذي لا يتمالك أن يسيل من اليد للينه ، فقد حل محمد داراً بعيدة لا يرجى الاجتماع به فيها مرة أخرى (٣) ، فقال (٤) :

فَلِلَّهِ مَا اسْتَوَدَعْتُمْ قَعْرَ هُوَّةٍ
بُغُورِيَةِ الشَّامِ الَّتِي قَدْ تَحَلَّيْهَا
وَقَدْ حَلَّ دَارًا عَنْ بَيْتِهِ مُحَمَّدٌ
وَمَا مِنْ فِرَاقٍ غَيْرِ حَيْثُ رَكَبْنَا
تُنَادِيهِ تَرْجُو أَنْ يُجِيبَ وَقَدْ آتَى

وَمِنْ دُونِهِ أَرْجَاؤُهَا وَهَيَامُهَا
تَنُوحُ وَخَمُّ أَهْلِهَا وَجُدَامُهَا
بَطِينًا لِمَنْ يَرْجُو اللَّقَاءَ لِمَامُهَا
عَلَى الْقَبْرِ مَحْبُوسٌ عَلَيْنَا قِيَامُهَا
مِنَ الْأَرْضِ أَنْضَادٌ عَلَيْهِ سِلَامُهَا (٥)

وكان الحزن سبباً في فلسفة بعض الشعراء تجاه الموت ، فعندما استشهد علفة بن عقيل (٦) فوصل نبؤه إلى أبيه الذي أحسن بتقل هذا الخبر عليه ، لان ابنه كان فارساً

(١) يُنظر : الفرزدق: ٤٢٤ .

(٢) شرح ديوان الفرزدق: ٧٥٣/٢ - ٧٥٤ .

(٣) يُنظر : الفرزدق: ٤٢٤ .

(٤) شرح ديوان الفرزدق: ٧٥٤/٢ .

(٥) الأنضاد : تراصف الحجاره بعضها فوق بعض . يُنظر : اللسان : ٤٤٥٣/٦ (نضد) .

(٦) هو علفة بن عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية بن صباح بن حابر بن بربوع بن غيض بن مرة ، ويكنى أبا العميس ، وبعد عقيل شاعر مجيد مثل من شعراء البوالة الأموية ، والذي أُرشدنا إلى استشهاد ابنه هذا هو قوله الآتي من نفس الشعر ائتت أعلاه :

وقالوا ألا تبكسي لمصرع فارس
فأقسمت لا أبكي على هلاك هالك
نعتة جنود الشام غير ضئيل
أصاب سبيل الله خير سبيل

ينظر : الأعاني : ٣١٣-٢٦٩/١٢ .

شجاعاً له منزلة كبيرة بين قومه ، وهذا الخبر كان سبب فلسفته : فيقول: كأن المنايا
تبتغي خيارنا ، أو لها نسباُ عندنا أو أنها أخذت الفتى علفةً بدليل هداها إليه ، فلتحل
المنايا حيث شاعت ، ولتأخذ من تشاء فإنها محللة بعد الفتى ابن عقيل ، فقال (١):

كَانَ الْمَنَائِيَا تَبْتَغِي فِي خِيَارِنَا لَهَا نَسَبًا أَوْ قَتَلِي بِدَلِيلِ
تَحَلُّ الْمَنَائِيَا حَيْثُ شَاءَتْ فَإِنَّمَا مُحَلَّلَةٌ بَعْدَ الْفَتَى ابْنَ عَقِيلِ

إنَّ لنباُ استشهاد الأجابة والأصدقاء أثر ووقع شديد في نفوس من لهم صلة بهم ،
فعندما استشهد القائد سورة بن الحر ورفاقه المجاهدين في سمرقند تأثر لاستشهادهم
مجاهد كان قد رافقهم في الجهاد ، فقد طال عليه ليله إذا ما حاول النوم ، ولكن هذا الليل
على النيام قصير ، وإذا ما جرب الإغفاء أرقت نوم عينه حادث استشهاد ذلك القائد
ورفاقه ، فقال (٢):

تَطَاوَلَ مَا أَنَامَ عَلَيَّ لَيْلِي وَلَكِنْ لَا يَطْوُلُ عَلَيَّ النَّيَامُ
إِذَا أَغْفَيْتُ أَرَقَّتْ نَوْمَ عَيْنِي حَوَادِثُ قَدْ أَخَنَتْ عَلَيَّ التَّمَامُ

إنَّ هذا الحزن بمظاهره المتعددة ، وأثاره المختلفة في نفوس الشعراء وغيرهم من
كانت له صلة بهؤلاء الشهداء ، قد أثبت جلياً مكانة هؤلاء الشهداء الميمة بين أهليهم ،
وذويهم ، والوسط الذي كانوا قد عاشوا فيه ، فشكل فراقهم فراغاً كبيراً ، كما أثبت هذا
الحزن كل سجية عرف أو اتصف بها هؤلاء الشهداء في حياتهم ، لذلك تأثر وحزن كل
من كانت له صلة بهم ، لأنهم أدركوا مدى الخسارة الكبيرة التي حلت بهم برحيل هؤلاء
الأبرار عنهم .

٢. الدعاء بالسقيا لشوى الشهداء.

السقيا لغة: معروف والاسم منه السقيا بالضم ، فنقول: سقاه الله الغيث واسقاه ،
ويقال في الدعاء: سقيا له ورعياً (٣) ، أي سقاك الله ورعاك أي حفظك وهو مما يدعى به

(١) الأعنسى: ٣١٣/١٢ .

(٢) الفرج: ١٠٤/٨ .

(٣) ينظر: مختار الصحاح: ٣٠٥ (سقى) ، واللسان: ٢٠٤٢/٣ .

للإنسان^(١) ، أو نقول: سقاه ورعاه ، ويُقال: أيضاً سقيت فلانا واسقيته إذا قلت له: سقاك الله^(٢) ، قال ذو الرمة^(٣):

وَقَفَّتْ عَلَيَّ رُبْعٌ بِلِيَّةٍ نَاقِيَةٌ فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مَمَّا أَيْثُهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

أما اصطلاحاً فهو - الدعاء بالسقيا - دعاء إنساني يحمل معاني الخير والبركة والغيث لقبر المرثي^(٤) ، (والسقيا كما نعلم تعني المطر الغزير الذي يروي الأرض اليابسة فيحيي الزرع ويخضر الكلأ فيديم الحياة على وجه الأرض وهو يشبه الدعاء بسقيا أرض الحبيبة لأنه يعني بالحالين الخير والبركة الشاملة للأرض التي يحل فيها الفقيد أو الحبيب)^(٥) ، وهذا الدعاء أشبه ما يكون بطقس ديني ذا صلة بمعتقدات تقُدس صورة الماء ، وترى في نزول المطر صورة الرضى على قبر الميت^(٦) ، (فالدعاء به للأموات يشير بصورة غير مباشرة إلى تنمي الخير والبركة بصورة دائمة على أرض العرب ولكل من عليها وتحتها من الأحياء والأموات)^(٧) .

وهذا الدعاء ليس موضوعاً جديداً انفرد به شعراء هذا العصر ، بل هو موضوع قديم اتبعه شعراء ما قبل الإسلام ، فهذا أهبان بن همام بن نضلة الأسدي نجده يستخدم هذا الدعاء في رثائه لهما ، فقال^(٨) :

خَلِيلِيَّ عُوْجَا إِنَّمَا حَاجَةٌ لَنَا عَلَيَّ قَبْرِ هَمَامٍ سَقَّتَهُ الرَّوَاعِدُ
وهذه الخنساء تبكي أباها صخرأ الكريم وتدعو له بالسقيا ، فقالت^(٩) :

سَقِيَا لِقَبْرِكَ مِنْ قَبْرِ وَلَا بَرِحْتِ جُودَ الرَّوَاعِدِ تَسْقِيهِ وَتَحْتَلِبُ

(١) ينظر: المحمص : ٣ / السفر الثاني عشر ١٨٩ - ١٩١ لابن سيده .

(٢) ينظر: مختار الصحاح : ٣٠٥ ، واللسان : ٢٠٤٢/٣ .

(٣) ديوانه : ٣٨ . تحقيق كارليل هري هيس .

(٤) ينظر: الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام : ١٩٦ .

(٥) انصهر نفسه .

(٦) ينظر: شعراء أمويون : ق ٤/٢١١ .

(٧) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام : ١٩٦ .

(٨) الحماسة الصخرية : ٢٥٢/١ .

(٩) ديوانها : ١٣ ، تحقيق كرم البستاني .

وعرفه أيضا شعراء صدر الإسلام عندما دعوا به لشهداء المسلمين الأبرار ، فمر بنا هذا الدعاء في شعر كثير بن الغريزة النهشلي في رثائه لشهداء معارك الطالقان وجوزجان ^(١) ، ودعا به أيضا القعقاع بن عمرو التميمي في رثائه لخالد بن يعمر التميمي ^(٢) ، وهذا الدعاء كما نرى لا تتجاوز نسبة وجوده في أشعار شعراء هذين العصرين البيتين أو الثلاثة ، أما في هذه العصر وتحديداً عند أبي صخر الهذلي فإن هذا الدعاء قد اتسعت مساحته واتسعت معانيه في اثنين وعشرين بيتاً ، فنحن نرى الفرق بين هذه الإطالة التي انفرد بها هذا الشاعر والإيجاز الذي اعتاد عليه ما قبله من الشعراء .

والدعاء بالسقيا من الوسائل التي تخفف عن الإنسان هول المصيبة ، وتبعده عن الهواجس القاتلة ويزيح عنه بعض الهموم الكثيرة ، وتبعد عنه أشباح الغربة القاتلة ^(٣) ، لذلك أطال شاعرنا في هذا الدعاء حتى يكون متنفساً عن آلامه وأحزانه ، كما إن هذا الدعاء يُدخِل إحساس الراحة إلى النفس عندما تدعو الله تعالى أن يسقي قبر الميت ^(٤) .

وهذا الدعاء قد يأتي في مقدمة القصيدة ، ويأتي أيضاً في ختامها ، والختام بالسقيا هو الأفضل (لأنه مناسب لحدة الانفعالات الإنسانية فالحزين يتمنى قرب فقده أو انه لم يمت ... الخ ولكن بعد أن يمضه الواقع ويشعر بأن ما حصل شيء حتمي وأكد يعود ليدعو له بالخير والبركة والسقيا في عالمه الثاني) ^(٥) فمما جاء في النسوع الأول من الدعاء بالسقيا في مقدمة القصيدة ، ما وجد في رثاء الفرزدق لابن أخيه محمد فيدعو الله تعالى أن يسقي أريحا الغيث التي حل بها قبر محمد ، فحبه ليس نأرض بل هي بعوضة إليه ، وإنما حبه لقبر محمد الذي حل فيها ، وما زال في دعائه وهو يرسل السحاب المملوء بالمطر الكثير إلى مثنوى محمد ، فكلما ألقعت سحابة جاءت أخرى مكانها تنزل غيثها على الأرض التي حل بها قبر محمد ، فقال ^(٦) :

سَقَى أَرْيَحَاءَ الْغَيْثِ وَهِيَ بَغِيضَةٌ
إِلَيَّ وَلَكِنِّي لَيْسُقَاهَا هَامُهَا

(١) يُنظر: هذا البحث : ١٣٩

(٢) يُنظر : المصدر نفسه .

(٣) يُنظر : شعراء أمويون : ق ، ٢١ .

(٤) يُنظر : المصدر نفسه .

(٥) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام . ١٩٢ .

(٦) شرح ديوان الفرزدق : ٢ / ٧٥ - ٧٥٢

مِنَ الْعَيْنِ مُنْحَلُّ الْعَزَالِي تَسْوِقُهُ جَنُوبٌ بِأَنْصَادٍ يُسُوحُ رُكَامُهَا
إِذَا أَقْلَعَتْ عَنْهَا سَمَاءٌ مَلْحَةٌ تَبَعَجَ مِنْ أُخْرَى عَلَيْكَ غَمَامُهَا

فهو يدعو الله تعالى ان يسقي (الأراضى والمساحات الشاسعة المجببة المحيطة بقبر المرثي ثم يؤكد ان دعاءه ليس حبا في الأرض ومن عليها وإنما لمن ثوى تحتها من الأحبة) (١) .

ومن هذا الدعاء أيضا دعاء سليمان بن قتة مولى بني تميم بن مرة عندما رثى صديقه القائد أسد بن عبد الله الذي وافاه الأجل في خراسان ، فيدعو للمولى له ان يسقي أرض بلخ سهلها وحزنها أي ما ارتفع من أرضها ، ومروى خراسان السحاب الكثير المتجمع ، وهذا كله لان قبر أسد قد حل في تلك الأرض فقال (٢) :

سَقَى اللَّهُ بَلْخًا سَهْلًا بَلْخًا وَحَزْنًا وَمَرُوى خُرَاسَانَ السَّحَابِ الْجَمِّمًا (٣)

ولم يبخل الشمردل اليربوعي على أخيه وائل ، فدعا الله تعالى ان يسقي الأرض التي أحاطت قبره بالمطر المديم والوايل الشديد ، فقد ثوى غريبا في أرض بعيدة ، فقال (٤) :

(١) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام : ١٩٨ .

(٢) تاريخ الطبري: ٢٤٩/٨ .

(٣) الحمصا : الكثير ، يُنظر اللسان: ٦٨٦/١ . (حم).

(٤) شعراء أمويون: ٥٤١/٢٥

سَقَى جَدْنَا أَكْنَافَ غَمْرَةٍ دُونَهُ بِهَضْبَةٍ كُتْمَانَ الْمُدِيمِ وَوَابِلُهُ (١)
بِثُّوِي غَرِيبٍ لَيْسَ مِنَّا مَزَارُهُ قَرِيبًا وَلَا ذُو الْوَدِّ مِنَّا يُوَاصِلُهُ

أما النوع الثاني وهو ختام القصيدة بالسقيا فنبدأ به عند أبي صخر الهذلي لأنه كما ذكرنا قد أحسن توظيف هذا الدعاء ، فاتسعت مساحته وتعددت معانيه بشكل جعله ينفرد ويتميز عن غيره من الشعراء الذين استخدموا هذا الدعاء . فبدأ شاعرنا كما بدا غيره من الشعراء ، داعياً المولى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْقِيَ قَبْرَ ابْنِهِ دَاوُدَ (بالماء المسح من كل جانب ، لترتوي الأرض وليظل القبر ندياً رطباً تزهو فوق حفاقيه خضرة الجنة ، وترتوي من مياهه النفوس العطشى) (٢) ، فقال (٣) :

فَأَسْقَى صَدَى دَاوُودَ دَانَ غَمَامَهُ هَزِيمٌ يَسْحُ الْمَاءَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

وبعد أن بين الشاعر غايته من هذا الدعاء ، أرسل السحاب المملوء بالمطر إلى قبر أبنه ، وقد حملت رياح الصبا هذا السحاب ، فاتحدت هذه الرياح بأخرى جنوبية ويمانية ، فيذه الرياح الثلاث قد سرت وهي تحمل مزنة حضرمية مملوءة بالمطر ، فأخذت هذه الرياح تنزل من هذه المزنة مطراً خفيفاً لكي تسقي به مطافيل الإبل وتمسح ضرعها كي يزداد لبناً وتجود به على صاحبها ، فقال (٤) :

سَرَى وَغَدَّتْ فِي الْبَحْرِ تَضْرِبُ قَبْلَهُ نَعَامِي الصَّبَا هَيْجًا لِرِيَا الْجَنَابِ (٥)
ثَلَاثًا فَأَسْرَتْ مَزَنَةَ حَضْرَمِيَّةٍ لَهَا ثَائِبٌ طُلُّ النَّدَى بَعْدَ ثَائِبِ (٦)
تَحَوُّزُ مَنَاتِيحِ الْغَمَامِ وَتَمْتَرِي مَطَافِيلَ لَمْ يَنْدَبْ بِهَا صَرٌّ حَالِبٍ

وتستمر هذه الرياح في حملها هذه المزنة وارسالها إلى مثوى داود ، فتلجق هذه الرياح بهذه المزنة سحابة مملوءة بالماء والمطر ، لكي يغمر هذا المطر الأرض ويملا

(١) الدببة: المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق وهو دائب ، أما الوابل فهو المطر الشديد . يُنظر: اللسان: ١٤٦٧/٢ (نعم) .

٤٧٥٥/٦ (وبل) .

(٢) شعراء أمويون : ق ٢١/٤ .

(٣) شرح أشعار الهدليين: ق ٩١٩/٢ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) نعامي : من أسماء ريح الجنوب لأنها تهب من الجنوب وأرضها ، يُنظر : اللسان : ٤٤٨٢/٦ (نعم) .

(٦) ثائب : أي غص رطب كأنه ماء البحر إذا فاض بعد الجور ، يُنظر: المصدر نفسه: ٥١٨/١ (نوب) .

الجزيرة ، ويواصل هذا السحاب سيره ببطء وهو يمطر حتى يصل إلى العراق^(١) ، فيطيل المطر على واد في هذه الأرض وقد أحاطت به الجبال ، فكان هذا المطر سبباً في إكساء هذا الوادي وهذه الجبال خضرة جميلة ، لكثرة ما نبت فيها من نبت العرفج الذي عرف بانتشاره السريع ، وريحه الطيبة ، وخلوه من الأشواك^(٢) ، فقال^(٣) :

فَأَلْحَقَنَّ مَجْبُوكًا كَأَنَّ نَشَاصَهُ مَنَاجِبَ مِنْ عَرْوَانَ بِيضِ الْأَهَاضِبِ^(٤)
سَنَا لَوْحِهِ لَمَّا اسْتَقَلَّتْ عُرُوضُهُ وَأَحْيَا بِبَرْقِ فِي تَهَامَةِ وَأَصْبِ^(٥)
فَجَرَّ عَلَى سَيْفِ الْعِرَاقِ فَفَرَّشَهُ فَأَعْلَامَ ذِي قَوْسٍ بِأَدْهَمٍ سَاكِبِ^(٦)

ويتابع هذا الماء وهو سحاب يتخاله البرق ويعلو الأرض ذات الحجارة السوداء ، ويجلج المناطق والمواضع والأصوات التي يمر عليها ، وتأخذ بكل طرف من أطرافه ، وتتوالى أسماء الأماكن التي يصيبها ، والرياح الشامية واليمانية والصبا والسيل الذي يميل عن الصخور التي اتخذتها أولاد الثعالب ملجأ لها^(٧) ، وهذا السيل قد علا كل شئ حتى الأرض المرتفعة التي يظن البعض أنها في مأمن من السيل ، فيمر هذا السيل على كل شئ فيغشي الأرض ذات الحجارة السوداء ، وهذا السيل في سيره ، له صوت قوي يخيف حتى الوحوش ، وكأنه صوت ابل كثيرة^(٨) فقال^(٩) :

فَلَمَّا عَلَا سُودَ الْبِصَاقِ كِفَافَهُ تَمَيَّبُ الدُّرَى مِنْهُ بِدُهُمٍ مَقَارِبِ^(١٠)

(١) يُنظر: شعراء أمويون: ق/٤٤/٢١ .

(٢) يُنظر: اللسان: ٢٩٠٢/٤ (عرفج) .

(٣) شرح أشعار الجذليين: ٩١٩/٢-٩٢٠ .

(٤) المعرك: الممتلى ، والنشاص: السحاب ، وضبة: المطرة الدائمة العظيمة القطر .

يُنظر: اللسان: ٧٥٨/٢ (حيك) و٤٤٢٧١/٦ (نشص) و٤٦٧٠/٦ (هضب) ، وعروان: جبل . يُنظر: معجم البلدان

. ٣١٩/٦ .

(٥) واصب: دائم . ينظر: اللسان: ٤٨٤٨/٦ (وصب) .

(٦) السيف: ساحل البحر . يُنظر: المصدر نفسه: ٢١٧٢/٣ (سيف) .

(٧) يُنظر: شعراء أمويون: ق/٤/٢١ .

(٨) يُنظر: شرح أشعار الجذليين: ٢٩٠/٢-٢٩١ .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) كفافه: كُفِّ السحاب وكِفَافُهُ: نواحيه، وكَمَّةُ السحاب: ناحيته ، ينظر: اللسان: ٣٩٠٤/٥ (كفف)

فَجَلَّلَ ذَا عَيْرٍ وَوَالِي رِهَامَهُ
 فَلَمَّا عَلَتْ بِشَعْرَيْنِ مِنْهُ قَوَادِمُ
 مُضِرٍّ شَامِيهِ لِيَنْبُعَ فَالْحَمَى
 لَهُ ذَمِيرَاتٍ فِي غُمَيْسٍ تَحْفَهُ
 يُعْمَلُ قَفَارًا لَمْ يَكُ السَّيْلُ قَبْلَهُ
 فَأَصْبَحَ مَأْمُونُ الْمَنَاجِي مَحَافِلًا
 فَلَمَّا تَغَشَّى نَقْرِيَّاتٍ سَجِيلَهُ
 أَلْحَ رَجِيْفًا يُهْرَبُ الْوَحْشُ حِسَّهُ
 وَعَنْ مَخْمَصِ الْحَجَّاجِ لَيْسَ بِنَاكِبِ (١)
 وَوَأَزَنٍ مِنْ أَعْلَامِهَا بِالْمَنَّاكِبِ (٢)
 وَدُونَ يَمَانِيهِ جِبَالُ الْمَرَائِبِ
 وَقُدَّامَهُ تَغَشَّى ثَنَائِيَا الْمَنَّاكِبِ (٣)
 أَضْرَبُهَا فِيهَا جِبَابُ الثَّعَالِبِ
 لِأَعْرَاقِ طَمَّاحِ الْقَوَانِسِ لِأَجِبِ (٤)
 وَدَافِعُهُ مِنْ شَامَةٍ بِالرُّوَّاجِبِ (٥)
 كَلَجَّةِ حَوْمِ الْمَنْهَلِ الْمُتَجَّوِبِ

عندها رفع الشاعر له صوته وأيقن انه أصوات نوء من النجم ، وان السحاب الذي

أرسله غير كاذب ، فقال (٦) :

رَفَعْتُ لَهُ صَوْتِي وَأَيَقَنْتُ أَنَّهُ
 أَزَامِلُ نَجْمٍ خَالَهُ غَيْرُ كَاذِبٍ (٧)

فدعا الشاعر المولى عَلَيْكَ أَنْ يَمْطُرَ السحاب على الأرض التي حل بها قبر داود ، فيتبدد رمله ويختلط بما جلبته الريح من تراب وحصى لكي يروي صدى داود ، وهو يدرك أن صداه الذي قد علاه الصخر الذي وضع على قبره ليس بشارب ، ولكنه يشعر بالراحة عندما (يرى هذا السيل الكبير وقد غمر الأرض وسد كل الوديان التي بقيت

(١) عير: جبل في الحجاز . ينظر: معجم البلدان : ٣٦٥/٦ ، والرهيم : المطر الضعيف الدائم الصغير المتقطر ، والكب : انيس في الشيء . ينظر: اللسان: ١٧٥٦/٣ (رهم) و٤٥٣٤/٦ (نكب) .

(٢) شعران : جبلان من جبال تمامة . يُنظر : معجم البلدان: ١٤٥/٥ .

(٣) ذميرات: أصوات ، ينظر: اللسان: ١٥١٥/٣ (ذمر) ، ووجد البحث في معجم البلدان: ٤٠٣/٨ غميسة: بلدة بخرستان .

(٤) المناجي: ما ارتفع من الأرض فلم يعبه السيل ، والقوانس: الأعالي . ينظر: اللسان: ٤٣٥٩/٦ (بحا) و٣٧٥١/٥ (قس) .

(٥) السجيل: الصب ، والرواجب : الأبدى ينظر: المصدر نفسه: ١٩٥٩/٣ (سحل) و١٥٨٤/٣ (رجب) .

(٦) شرح أشعار المهذلين: ٩٢٢/٢ .

(٧) أزامل: أصوات ، اخال : السحاب ينظر: اللسان: ١٨٦٣/٣ (رمل) و١٣٠٨/٢ (حيل) .

تشكو الجذب لتقر العين وتسعد النفس وهي ترى مكان داود وقد تدافعت السيول حوله وهي صافية رزق ، وارتفعت أصول الشجر وتهدى روايا سيبه وسجاله (لداود) وهي مواهب من مواهب الرحمن^(١) ، فقال^(٢):

وَقُلْتُ عَسَى أَنْ يَلْبُدَ الْيَوْمَ وَدَقُّهُ سَفَاةً يَمَسُّنَ الرِّيحَ الحَوَاصِبِ^(٣)
لِيُرَوِّي صَدَى دَاوُودَ وَاللَّحْدُ دُونَهُ وَلَيْسَ صَدَى تَحْتَ العِدَاءِ بِشَارِبِ^(٤)
وَلَكِنْ يَقْرُ العَيْنَ وَالنَّفْسَ أَنْ تَرَى بِقَعْدَتِهِ فَضَلَاتِ زُرْقٍ دَوَاعِبِ^(٥)
وَتَهْدِي رَوَايَا سَيِّبِهِ وَسِجَالِهِ لِدَاوُودَ وَالرَّهْمَنَ جَمَّ المَوَاهِبِ

لقد كان هذا الدعاء رائعاً وهو يمتد إلى هذه المسافة ، واستغرق في هذا البعد معاني كثيرة ، وقد شمل هذه الباحة الكبيرة التي دخل في دائرتها أقطار شاسعة ومناطق متباعدة^(٦) .

ومن الشعراء الذين ختموا قصائدهم بدعاء السقيا الشمردل اليربوعي ، إذ نجده يختم مراثيته لأخيه وائل داعياً المولى عز وجل أن يسقي الأرض السهلة التي حل بها قبر أخيه، ويبين أن دعاءه هذا ليس حبا للأرض ، وإنما للذي حل فيها ، فقال^(٧) :

سَقَى الصَّفْرَاتِ العَيْثُ مَا كَانَ ثَاوِيَاً بَيْنَ وَجَادَاتِ أَهْلِ شَوْلٍ مَحَابِلُهُ
وَمَا بِي حُبِّ الأَرْضِ إِلَّا جَوَارِهُهَا صَدَاهُ وَقَوْلُ ظَنِّ أَنِّي قَائِلُهُ

ومنه أيضا دعاء ابن عرس العبدي لأسد بن عبد الله القسري ، إذ يدعو له أن يسقي قبره العيث ، لأن أسداً في نظره طالما كان غيظهم الخصب ، فقال^(٨) :

سُقِيَتِ العَيْثُ إِنَّكَ كُنْتَ غَيْثَاً مُرْبِعَاً عِنْدَ مُرْتَادِ النَّجَاعِ^(٩)

(١) شعراء أمويون: ق/٤/٢٢ .

(٢) شرح أشعار المهديين : ٩٢٢/٢-٩٢٣ .

(٣) الحاصب : هي الريح الشديدة التي تحمل التراب والخصياء . يُنظر سنان : ٨٩٣/٢ (حسب) .

(٤) العداء الصخر الذي يوضع على القمر . يُنظر : المصدر نفسه : ٢٨٤٩/٤ (عند) .

(٥) الرزق : الماء الصافي . يُنظر : اللسان : ١٨٢٧/٣ (رزق) .

(٦) يُنظر : شعراء أمويون : ق/٤/٢٢ .

(٧) المصدر نفسه : ق/٢/٥٤٥ .

(٨) تاريخ الطبري : ٢٤٨/٨ .

(٩) الزريع : الخصب . يُنظر اللسان : ٤١٨٣/٦ (مرع) .